

الروح والنفس والعقل والقلب في القرآن

أ.د عبد الله الشارف

كلية أصول الدين / تطوان

سلسلة دراسات قرآنية

(1)

الروح والنفس والعقل والقلب في القرآن

أ.د عبد الله الشارف

كلية أصول الدين / تطوان

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : الروح والنفس والعقل والقلب في القرآن
المؤلف : أ.د عبد الله الشارف
الطبعة الأولى: 1446هـ / 2024م
الطبع : مطبعة تطوان - تطوان
الهاتف: 34 42 70 539 (212)+
البريد الالكتروني: imp.tetouan@gmail.com
رقم الايداع القانوني الوطني: 2024MO5210
رقم الايداع القانوني الدولي: 978-9920-28-995-5

مقدمة

إن موضوعات الروح، والنفس، والعقل، والقلب بمعناه الروحي، من الموضوعات الجوهرية التي شغلت بال المفكرين، والفلاسفة، والمتصوفة، ورجال الدين، على مر العصور. كما أُلِّفت فيها آلاف الرسائل والكتب والمقالات.

وبما أن طبيعة هذه الموضوعات لا تخضع للبحث التجريبي المادي، فإن تصورها، وفهمها، وتمثلها، اختلف باختلاف ميول وعقائد المفكرين والدارسين. فإذا نظرنا، على سبيل المثال، في الفلسفة اليونانية، وجدنا أن هناك تضاربا فكريا وتصوريا، بين كثير من فلاسفة اليونان، فيما يخص حقيقة وجوهر هذه الموضوعات الأربعة.

ولقد تأثر متفلسفة المسلمين بتلك الأطروحات الفلسفية اليونانية المتعلقة بالروح، والنفس، والعقل، والقلب. فانتقد اللاحق منهم السابق، وكلهم ادعوا وصلا بليلى. وخاض متصوفة الهنود، واليهود، والمسيحيين، وكذا متصوفة المسلمين، غمارتلك الموضوعات، واقتحموا لجة بحرها، وخلفوا تراثا روحيا وسلوكيا، قائما على الذوق، والإلهامات، والإشراقات الروحية، التي لا تخلو من روافد، وعناصر، ومؤثرات فلسفية.

هذا وإن الثقافات والحضارات القديمة مثل: البابلية والأشورية، والفرعونية، والهندية، اشتملت على تصورات متعلقة بالموضوعات الأربعة، متجذرة في عقائدها الدينية والفلسفية. كما لا يمكن تصور ثقافة مهما كانت ضاربة في القدم، خالية من الاهتمام، والبحث، والجدال حول

الفصل الأول

الروح في القرآن

الروح لغة واصطلاحا

الروح في القرآن

ما هي الروح ؟

إسناد روح العبد إلى خالقها

الوحي روح

الروح رحمة ونصر وتأييد رباني

الروح منعمة أو معذبة

تلاقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات

هل تفنى الروح حين تموت ؟

تلك الموضوعات التي هي ألصق ما تكون بالإنسان، وأقرب إليه من حبل الوريد.

وفي الغرب الحديث والمعاصر، حيث طغى التفكير المادي والإلحاد العقدي، أنكر معظم الفلاسفة، وعلماء الأرض والحياة، وغيرهم من علماء النفس والاجتماع، وملايين من الأوربيين والأمريكيين، وجودَ الخالق. كما اعتبروا الروح وهماً محضا لا وجود له.

وإذا كانت آراء الفلاسفة والمتصوفة، وغيرهم من المفكرين، متضاربة فيما بينها لاختلاف المنطلقات العقدية والفكرية، فإن الوحي القرآني يقدم للبشرية تصورا عميقا ومقنعا، لحقيقة هذه الموجودات الأصيلة الأربعة، مستدلا عليها بأدلة وبراهين يستحيل دحضها، كما لا يعترض عليها أو يجادل فيها إلا جاهل، أو جاحد قد طبع الله على قلبه.

ولقد وفقني الله سبحانه وتعالى، للنظر في هذه الموضوعات، والإسهام في عرضها وبيانها، مرتكزا على التأمل والتدبر في الآيات القرآنية المتعلقة بها، مستنبطا منها ومن سياقاتها، معاني ودلالات، ومقاصد جليلة، مع بيان كيف أن القرآن العظيم ينفرد بتصور فريد، وصحيح، ووحيد لعوالم الروح، والنفس، والعقل، والقلب.

كيف لا ، وهو كلام الله المنزل على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، "لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" (41) (فصلت 41). وقال تعالى: "أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ" (الملك 15)، العليم الحكيم، الذي أحاط علمه بكل مخلوقاته، وبما تخفيه الأنفس، وتكنه السرائر والضمائر، سبحانه ما أعظمه.

الروح في القرآن

الروح لغة واصطلاحا

الروح: النفس[1]، ويذكر ويؤنث، والجمع: الأرواح. وسمي القرآن روحا، وكذلك جبريل وعيسى عليهما السلام.[2]

وقال ابن الأثير: "قد تكرر ذكر الروح في الحديث كما تكرر في القرآن، ووردت فيه على معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن والوحي والرحمة، وعلى جبريل".[3]

وقال الإمام القرطبي: "الروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه، أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما".[4]

1- تهذيب اللغة، الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (ت 370هج)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، ج5، ص139.

2- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 393)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هج-1987م، ص 139.

3- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: أبو السعادات المبارك محمد (ت 606)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي-محمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هج-1979م، ج2، ص 271.

4- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية - القاهرة، 1384هج- 1964م، ط2، ج10، ص 24.

وقال العليم الحكيم: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء 85)

وقال العلي القدير: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ" (194) (الشعراء).

وقال عز وجل: "يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ" (غافر 14).

وقال عز وجل: "أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ" (المجادلة 21).

وقال السميع البصير: "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا" (الشورى 49).

وقال الغني الحميد: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا" (مريم 16).

وقال البر الرحيم: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (الحجر 29).

إلى غيرها من الآيات البينات التي ذكر فيها لفظ "الروح"، وما أدراك ما الروح، ذلك المخلوق العظيم الفريد، الذي استأثر الله بعلم حقيقته وجوهره، وحجب قلوب عباده عن إدراكه، وفهم سره.

الروح في القرآن

ذكرت الروح في القرآن الكريم في بضعة معان؛ منها:

الشيء أو الجوهر الذي تقوم به حياة الإنسان وباقي المخلوقات ذوات الأرواح؛ قال الله عز وجل: "وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا" (الإسراء 85).

الملك جبريل عليه السلام؛ قال العليم الحكيم: "قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ" (النحل 102).

الوحي؛ قال اللطيف الخبير: "يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ" (النحل 2)، أي؛ بالوحي.

الأمر؛ قال الحليم الشكور: "إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ"(النساء 170)، أي؛ وأمرٍ منه سبحانه ما أعظمه وأجله.

وورد لفظ "الروح" في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية؛ منها قوله تعالى:

"وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ" (البقرة 86).

وقال الحي القيوم: "يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ" (النحل 2).

فقال: "قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً"، فقال بعضهم لبعض: ألم نقل لكم لا تسألوه."[5]

وقال صاحب "الظلال"، رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية : "والمنهج الذى سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله ، وبعضهم عندما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمره- سبحانه - . . .

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ، ولكن فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل فى حدوده ، وفى مجاله الذى يدركه .

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه . . ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدرى ما هو؟ ولا كيف جاء؟ ولا كيف يذهب؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل.

وقال بعض العلماء : وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح، المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته ، أبلغ زجر ، ويردعهم

5- "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركيبالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر - د عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر، 1421هج- 2001م. ط1، ج15، ص 67.

ويستفاد من هذه الآيات الكريمة المتعلقة بالروح، فوائد جليلة؛ منها: كون الروح من أمر الله جل وعلا، ومما استأثر الله بعلمه. ومنها أن روح العبد مسندة إلى الله عز وجل تشريفا وتكريما. ومنها أن الوحي الإلهي روحٌ. ومنها أن الروح قوة ونصر وتأييد رباني لعباده المؤمنين.

ما هي الروح ؟

الروح مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، لا قدرة للإنس ولا للجن ولا للملائكة على إدراك حقيقته وسره المكنون. فكل المخلوقات العاقلة عاجزة عن فهمه والإحاطة بجوهره. وشاء العليم الحكيم ألا يُطلع أحدا من عباده على حقيقة هذا المخلوق المحْدَث؛ إشارة منه سبحانه إلى عظمته، وأزليته، وكماله، وجلاله، وعلو شأنه، وإلى عجز عباده وضعفهم.

قال الحق جل وعلا: "قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا" (الإسراء 85). قال المفسر أبو جعفر محمد الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم: ويسألك الكفار بالله من أهل الكتاب عن الروح ما هي؟ قل لهم: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا قليلا وذُكِر أن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح، فنزلت هذه الآية بمسألتهم إياه عنها، كانوا قوما من اليهود. ذكر الرواية بذلك حدثنا أبو هشام، قال: ثنا وكيع، قال: ثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حرث بالمدينة، ومعه عَسِيب يتوكأ عليه، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم: اسألوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، فقام متوكئا على عسيبه، فقمت خلفه، فظننت أنه يوحَى إليه،

القلب العليل، اللهم ما حرره وسطره علماء وفقهاء مسلمون، في هذا الموضوع، معتمدين على الكتاب والسنة، ومستنبطين منهما دلائل وبراهين تميط اللثام عن بعض الحقائق، والأوصاف المتعلقة بالروح؛ تلك المعاني التي غابت عن عقول الفلاسفة والملاحدة لجهلهم وعدم إيمانهم بدين الله سبحانه.

إن وحي الله عز وجل هو النور الذي ينير الظلمات، ويبدد غيوم الجهل والغفلة، ويبين ما عجز الباحثون والدارسون عن إدراكه فيما يتعلق بالموضوعات الغيبية، مثل موضوع الروح. ولذا فإن المسلمين، انطلاقا من الوحي ومن عقيدتهم الصحيحة، يدركون معنى الروح، ويستوعبون أوصافها، بعد اطلاعهم على ما ورد في شأنها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مما جعل قلوبهم مطمئنة ومستصحِبة لحال اليقين والتسليم، بخلاف قلوب غيرهم الممتلئة حيرة وضلالا.

إسناد روح العبد إلى خالقها

قال الحق سبحانه: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ" (الحجر 29).

قد يظن بعض من لا علم له من الناس أن قوله تعالى: "ونفخت فيه من روحي"، أن الله أضاف الروح، التي نُفخت في جسد آدم عليه السلام، إلى نفسه عز وجل، إضافة ذاتية. وهذا فهم سقيم وعليل ومنحرف عقديا، لا أساس له ولا ينهض على دليل. ولصرف هؤلاء الناس عن فهمهم الخاطئ، قام بعض العلماء الأجلاء برفع هذا اللبس، وبيان التفسير الصحيح للآية، حتى لا يتوهم المتوهمون وجود علاقة ذاتية بين الخالق

أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه ، بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو دنيا . .

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلاً عن أممهم المقتدين بهم.[6]

وجاء في تفسير أحمد المراغي رحمه الله: "وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة؛ أولاها بالاعتبار قولان:

الأول: إن الروح جسم نوراني حي متحرك من العالم العلوي، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، والدُّهن في الزيتون، والنار في الفحم (...)، واختاره الرازي وابن القيم في كتاب "الروح".

الثاني: إنه ليس بجسم ولا جسماني ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف. وإلى هذا ذهب حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وأبو القاسم الراغب الأصفهاني".[7]

لقد حار العلماء والمفكرون قديما وحديثا، في حقيقة الروح، وكنهها وسرها. كما تناول موضوعها بالبحث والدراسة والتأمل، كثير من الفلاسفة على مر العصور، فلم يظفروا جميعا، بما يشفي الغليل ويطمئن

6- "في ظلال القرآن"، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 1417هج-1996م. ط25، ج4، ص 2249.

7- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371هج)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر1365هج- 1946 م، ط1، ج15، ص 89.

فالروح في هذه الآية؛ من جملة ما خلق، عز وجل وأبدع، من مخلوقات. وإنما أضيفت إليه سبحانه، إضافة ملك وتشريف، كما أضيف "بيت الله" و"ناقة الله" و"عباد الله" و"رسول الله".

" فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له ، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق ، كقوله تعالى: "بيت الله" و"ناقة الله" و"عباد الله" بل وكذلك روح الله عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم . ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره مثل كلام الله وعلم الله ويد الله ونحو ذلك كان صفة له".[10]

ومما لا شك فيه أن غلاة الصوفية من الحلوليين، وأصحاب وحدة الوجود، وكذلك بعض متفلسفة المسلمين المتأثرين بنظرية الفيض اليونانية والفلسفة الإشراقية، ونظرية وحدة الوجود، ونظرية الحلول عند المسيحيين، كل هؤلاء وغيرهم ممن انحرفوا عن عقيدة التوحيد الصحيح، قد زلت أقدامهم في هذا المضمار، ونطقوا بكلام لا يليق بالذات الإلهية، وذلك عندما خاضوا في مثل هذه الموضوعات التي نهى الشرع عن الخوض والمجادلة فيها.

10- "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، (ت 728هج)، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية،ط2، 1419هج-1999م، ج4، ص 115-116.

عز وجل ومخلوقه المحدث، أي؛ روح آدم عليه السلام. وهذه جملة من أقوال العلماء والمفسرين، تبين ما استشكل على المتوهمين فيما يخص هذه المسألة.

جاء في "الوسيط في تفسير القرآن المجيد" ما نصه: "كذلك هو خير منه روحًا، لقوله تعالى: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي" (الحجر 29)، بإضافة روحه إلى الله تعالى؛ تشريفًا لا تبعيضًا، ونشرت فيه من الروح المنسوب إليّ نسبة تشريف وملك وإيجاد، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد، وليست جزءًا من روحه تعالى، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض"[8]. فالإضافة في قوله تعالى: "روحي" إضافة تشريف وتكريم، مثل الإضافة في ناقة الله، وبيت الله.

وقال أبو عبد الله محمد القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى:"و نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي" :النفخ إجراء الريح في الشيء، والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه، أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا كقوله: أرضي وسمائي وبيتي وناقة الله وشهر الله، ومثله: وروح منه"[9].

8- "الوسيط في تفسير القرآن المجيد"، الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)،تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1415هج-1994م، ج3، ص 38.

9- "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1408هج-1988م، ج10، ص 17.

أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي "جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا"، يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم"[12].

نعم؛ القرآن نور الله المبين، وحبله المتين، أنزله سبحانه على عبده المصطفى الأمين. من اهتدى به واستضاء بنوره حيي قلبه، وطاب عيشه، وفاز بخيري الدنيا والآخرة. وإذا كان الطعام روح الأبدان، فإن القرآن روح القلوب، أي؛ حياتها. قال تعالى: "إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ" (الإسراء 9)، وقال سبحانه: "أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُوراً يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا" (الأنعام 123)

عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي شريح الخزاعي قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبشروا أبشروا ؛ أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا"[13]. فما أسعد من استضاء بنور روح القلوب، واستمسك بالعروة الوثقى، واستظل بظلال آيات الذكر الحكيم. هنالك يقوى

12- "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، السعدي؛ عبد الرحمن بن ناصر (ت1376هج)، دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الرياض، ط5، 1432، ص 903.

13- المعجم الكبير،الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت.، ج22، ص 188.

"قلت: واعلم أن القائلين بقدم الروح صنفان: صنف من الصابئة الفلاسفة، يقولون: هي قديمة أزلية لكن ليست من ذات الرب، كما يقولون ذلك في العقول، والنفوس الفلكية، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة. وصنف من زنادقة هذه الأمة وضلالها من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله، وهؤلاء أشرُّ قولًا من أولئك، وهؤلاء جعلوا الآدمي نصفين: نصف لاهوت، وهو روحه، ونصف ناسوت، وهو جسده، نصفه رب ونصفه عبد"[11].

الوحي روح

قال العليم الحليم: "وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ اَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِے مَا اَلْكِتَٰبُ وَلَا اَلِايمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِے بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِے إِلَيٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الشورى 49).

"أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا": وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحا، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: "مَا كُنْتَ تَدْرِي"، أي: قبل نزوله عليك "مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ"،

11- "مجموع الفتاوى" (مفصل اعتقاد السلف)، ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، (ت 728هج)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية، 1425هج-2004 م، ج4، ص 222.

المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله .

"أولئك كتب في قلوبهم الإيمان " فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن فلا زوال له ولا اندثار ، ولا انطماس فيه ولا غموض ! "وأيدهم بروح منه " وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا والإشراق الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق""[14].

إن هذا التأييد الإلهي للمؤمنين يشمل أرواح وحقائق كل الأمور، والأوصاف التي يتخلقون ويتصفون بها، مثل: العلم، والإيمان، والعبادة، والإنابة، والمحبة، والإحسان، والتوكل، والإرادة، والصدق، والإخلاص، وغيرها. فكل هذه الأوصاف والقوى الإيمانية الروحانية التي يؤيد الله بها عباده المؤمنين، تنطوي وتتأسس على أرواح تخصها، فيقال: روح العلم، وروح الإيمان، وروح العبادة، وروح الإنابة، وروح التوكل، وروح الصبر، وهكذا سائر الأوصاف والقوى الإيمانية. وهكذا يتجلى التأييد الإلهي

14- "في ظلال القرآن"، سيد قطب،.....ج6، ص 3515.

الشعور بالقرب من الله، وينشط البدن والنفس للعبادة، وتحلو الدعوات والمناجات.

قال محمد البوصيري رحمه الله في "همزيته":

وإذا حلت الهداية قلبا --- نشطت للعبادة الأعضاء

الروح رحمة ونصر وتأييد رباني

ومن معاني الروح في القرآن الكريم: معنى الرحمة، والنصر، والمدد، والتأييد من الله عز وجل. وهذه الرحمة والألطاف الإلهية، يخص الله بها عباده المؤمنين المتقين، الذين تولوا الله ورسوله، وتبرؤوا من الشرك والطاغوت، ومن كل ما لا يرضاه سبحانه لعباده. قال العليم الحكيم في محكم التنزيل: "لَّا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ أَللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمُۥٓ أَوَ اَبْنَآءَهُمُۥٓ أَوِ اِخْوَٰنَهُمُۥٓ أَوْ عَشِيرَتَهُمُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِے قُلُوبِهِمُ اُلِايمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ" (المجادلة 21).

"لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله". فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما يجمع إنسان في قلب واحد وُدَّين : وُدّاً لله ورسوله، وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان . "ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ". فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان .إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين : لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت

والأزمان: "أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ" (المجادلة 21).

الروح منعمة أو معذبة

إن العبد عندما تخرج روحه وتفارق جسده، يُنعَّم أو يُعذَّب. فإن كان مؤمنا صالحا، كان قبره روضا من رياض الجنة، ومنه ينظر إلى مكانه أومقعده في الجنة. وإن كان كافرا؛ فإن قبره يكون حفرة من حفر النار أعاذنا الله منها. ومن الأدلة القرآنية على نعيم وعذاب أهل الحياة البرزخية، قوله تعالى: "وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ" (آل عمران 169-170). وقوله عز وجل: "ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ" (غافر 46).

ومن أدلة السنة النبوية، ما رواه البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ : هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ".[15]

15- "صحيح البخاري"، البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني. ثم صوّرها

للمؤمنين، من خلال تخلقهم، وتأثرهم بأرواح وحقائق تلك الأوصاف والمقامات الإيمانية.

ومن المشاهد المعبرة عن قوة هذه الأرواح وحيويتها، مشاهد غزة المرابطة والمجاهدة؛ حيث يجاهد الآن؛ ونحن في شهر ربيع الثاني 1446هج، ومنذ ما يزيد عن سنة، مجاهدو وأبطال غزة، اليهود ومرتزقتهم، مزق الله شملهم، بعد ما ساعدتهم وأمدتهم أمريكا، دمر الله ملكها، بالمال والعتاد العسكري. ولقد أبلى هؤلاء المجاهدون، ولا يزالون، في قتالهم لأعدائهم، البلاء الحسن، في هذه المعارك المسماة: "طوفان الأقصى"، وقتلوا وأصابوا منهم، خلال هذه المدة، بضعة آلاف جندي، ودمروا مئات الدبابات والمركبات العسكرية. ولقد شهد كثير من المسيحيين واليهود في العالم الغربي وداخل الكيان الصهيوني، بقوة وصمود مجاهدي حماس، رغم قلة عتادهم وضعفه، مقارنة بسلاح العدو الغاشم، الذي لم يستطع كسر شوكة المجاهدين المتحصنين في أنفاقهم تحت أرض غزة المباركة، حيث يغيرون وينقضون على جنود اليهود ويبيدونهم عن بكرة أبيهم، ثم يعودون على جناح السرعة، إلى أنفاقهم ومخابئهم، مما جعل الأعداء يشتد غيظهم وحنقهم، فطفقوا يدمرون بيوت أهل غزة، ومدارسهم، ومساجدهم، وإداراتهم، ومصانعهم، ومستشفياتهم، وقتلوا خلال هذه المدة: ما يزيد عن أربعين ألفا من المواطنين الأبرياء العزل، أغلبهم من النساء والأطفال. ولقد ضرب أهل غزة جميعهم، أروع الأمثلة في الصبر وتحمل الأذى، والرضا بقضاء الله. إن مواقفهم هذه تعبر عن روح الجهاد، وروح الإيمان، وروح الصبر، وغيرها من أرواح الصفات التي يتحلون بها. إنه التأييد الإلهي للمؤمنين والمجاهدين المخلصين على مر العصور

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبرين، فقال: "إنهما ليُعذَّبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدهما، فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر، فكان لا يستترُ مِن بوله"، ثم دعا بجريدة رَطْبة، فشقَّها نصفين، ثم غرَز في كل قبر واحدةً، فقالوا: يا رسول الله، لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: "لعله يُخفَّف عنهما ما لَم ييبسا".

وفي صحيح مسلم وسائر السنن عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا فرَغ أحدُكم من التشهد الأخير، فليقل: أعوذُ بالله من أربع: من عذابِ جهنَّم، ومن عذاب القبر، ومن فتنةِ المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدَّجَّال".

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "خرجنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في جنازةِ رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبرِ ولمَّا يُلحَد، فجلسَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة، وجلسنا حوله وكأنَّ على رؤوسنا الطَّير، وفي يده عودٌ ينكُتُ في الأرضِ، فجعلَ ينظُرُ إلى السماءِ وينظُرُ إلى الأرضِ، وجعلَ يرفعُ بصرَهُ ويخفضُه، ثلاثًا، فقال: استعيذوا باللهِ من عذابِ القبرِ، مرتين، أو ثلاثًا، ثم قال: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من عذابِ القبرِ (ثلاثاً)، ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نزل إليه ملائكةٌ من السماءِ، بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كَفَنٌ من أكفانِ الجنةِ، وحنُوطٌ من حَنُوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يَجئُ ملكُ الموتِ عليه السلام حتى يجلسَ عند رأسِه فيقولُ: أيَّتُها النفسُ الطيبةُ (وفي رواية: المطمئنّة)، أخرجي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ قال: فتخرُجُ تسيلُ كما تسيل القطرةُ

فطوبى للعبد المؤمن الصالح، والويل والثبور للشقي الكافر الطالح.
وقد دلت شواهد كثيرة من القرآن والسنة، على صحة وحقيقة نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين، في قبورهم وحياتهم البرزخية.

وحَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ يَحْيَى بْنُ خَلَفٍ قَالَ :حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ المُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ :أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ : النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ :مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ :قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ :أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ :نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ :سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ :قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ :التَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ" .[16]

بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى 1422 هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي. ج2، ص 99.

[16]- " سنن الترمذي"، الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، (ت279)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر (جـ 1،2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395هـ-1975م، ج3، ص 375.

قبرِهِ مدَّ بصرِهِ، قال: ويأتيه (وفي رواية: يُمثّل له) رجل حسنُ الوجه، حسنُ الثيابِ، طيّبُ الريحِ، فيقولُ: أبشِر بالذي يَسُركَ، أبشِر برضوانٍ من اللهِ، وجناتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ، هذا يومُك الذي كنت تُوعدُ، فيقولُ له: وأنتَ فبشرك الله بخيرٍ منْ أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجئ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ فواللهِ ما علمِتُك إلا كنت سريعًا في طاعةِ الله، بطيئًا في معصيةِ اللهِ، فجزاك الله خيرًا، ثم يُفتحُ له بابٌ من الجنةِ، وبابٌ من النّار، فيُقال: هذا منزلُك لو عصيتَ الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنةِ قال: ربِّ عجِّل قيام الساعةِ، كيما أرجعُ إلى أهلي ومالي، فيُقالُ له: اسكُن.

قال: "وإن العبد الكافر" وفي رواية: "الفاجر" إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرةِ، نَزَلَ إليه من السماء ملائكةٌ غلاظٌ شِدادٌ، سُودُ الوجوهِ، معهم المسوحُ من النار، فيجلِسون منه مدَّ البصر، ثم يجئُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسِه، فيقولُ: أيّتها النفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ، قال: فتفرّقُ في جسدِهِ فينتزعُها كما يُنتَزع السُفودُ من الصُّوفِ المبلولِ، فتُقطّعُ معها العروقُ والعصبُ، فيلعنهُ كلُّ ملكٍ بين السماءِ والأرضِ، وكُلُّ مَلَكٍ في السماء وتُغلقُ أبوابُ السماء، ليس من أهلِ بابٍ إلاّ وهمُ يدعون الله إلاّ تَعرجَ روحُه مِنْ قِبَلِهم، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعُوها في يدِهِ طرفةَ عينٍ حتى يجعلُوها في تلك المُسُوحِ، وَيُخْرُجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجدت على وجهِ الأرض، فيصعدُون بها، فلا يمُرُّون بها على ملأ من الملائكةِ إلاّ قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلان – بأقبحِ أسمائِه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماءِ الدنيا، فيُستَفتح له، فلا يُفتحُ له، ثم قرأ رسولُ الله صلى الله

منْ في السِّقاءِ، فيأخذها، (وفي رواية: حتى إذا خَرَجَت روحُه صلّى عليه كلُّ ملكٍ بين السماء والأرضِ، وكُلُّ ملك في السماءِ، وفتحت له أبوابُ السماء، ليس من أهلِ باب إلا وهُم يدعون الله أن يُعرَج بروحه من قِبَلِهم)، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يدهِ طرفة عين حتى يأخُذُوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، فذلك قولُه تعالى :"تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ" (الأنعام 62)، ويَخرجُ منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وجُدت على وجه الأرض، قال: فيصعدُون بها فلا يمرُّون – يعني – بها على ملأٍ من الملائكةِ إلاّ قالوا: ما هذا الروحُ الطيّب؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلان – بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له فيُفتحُ لهم، فيشيعُه من كل سماءٍ مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يَنتهوا بها إلى السماء السابعة فيقولُ الله عزّ وجل: اكتُبوا كتاب عبدي في علِّيّن، وأعيدوهُ إلى الأرضِ، فإنّي منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى، قال: فيُردُّ إلى الأرض، وتُعادُ روحُه في جسدهِ قال: فإنّه يسمعُ خَفقَ نعالِ أصحابهِ إذا ولُّوا عنه مدبرين فيأتيهِ مَلَكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانِه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربّي الله فيقولان له: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقولُ: هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما عَمَلُك؟ فيقول؟ قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، وهي آخرُ فتنةٍ تُعرضُ على المؤمنِ، فَذلك قول الله عزّ وجلّ :"يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا" (إبراهيم 29)، فيُنادي مُنادٍ في السماء أنْ صَدقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنةِ، قال: فيأتيه من رُوحِها وطِيبها، ويُفسحُ له في

أخرى، فيصيحُ صيحةً يسمعهُ كلُّ شيء إلاّ الثقلينِ، ثم يُفتح له بابٌ من النار، ويُمهَّدُ من فُرُشِ النارِ، فيقول: رَبِّ لا تُقمِ الساعة".[17]

وقال الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:

" إن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى"[18].

والخلاصة أن الشواهد والأدلة على نعيم الروح وعذابها في قبرها وبرزخها كثيرة ومتظاهرة، لا يجحدها إلا الزنادقة، ومن ضل الطريق القويم من المتفلسفة والمتكلمين المعتزلة. وما يحصل للنائم من أحلام ورؤى سارة أو مخيفة، دليل على تنعم الروح أو تألمها في برزخها، عندما تفارق البدن أثناء النوم، مما يدل على أن الروح كلما فارقت البدن في حال النوم أو الموت، التحقت بعالم البرزخ حيث تتنعم، أو تشقى وتتعذب.

17- مسند الإمام أحمد بن حنبل،الإمام أحمد بن حنبل (ت 241)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هج- 2001م، ج30، ص، 576-77-78.

18- "الروح"، ابن القيم؛ شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، المكتب الإسلامي بيروت، دمشق، عمان، ط1 1425هج-2004م، ص 217.

عليه وسلم :"لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ" (الأعراف 39)، فيقولُ اللهُ عزّ وجلّ: اكتُبوا كتابةَ في سجّين، في الأرض السُّفلى، ثم يُقال: أعيدُوا عبدي إلى الأرضِ منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى، فتُطرح روحُه من السماء طَرحًا حتى تقعَ في جسدِه ثم قرأ:"وَمَن يُشۡرِكۡ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ" (الحج 29)،فتُعادُ روحُه في جسدِهِ، قال فإنه ليسمعُ خفقَ نِعالِ أصحابهِ إذا ولَّوا عنه. ويأتيه ملكانِ شديدا الانتهارِ، فينتهرانهِ، ويُجلسانهِ، فيقوُلانِ له: مَنْ ربُّك؟ فيقول: هاهِ هاهِ لا أدري، فيقُولان له: ما دينُك؟ فيقولُ: هاهِ هاهِ لا أدري، فيقولانِ: ما تقولُ في هذا الرجلِ الذي بُعِثَ فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيُقال: محمدٌ! فيقولُ: هاهِ هاهِ لا أدري سمعتُ الناسَ يقولون ذاك قال: فيُقال لا دريت، ولا تلوت، فيُنادي مُنادٍ من السماءِ أنْ: كذبَ، فأفرشوا له من النارِ، وافتحُوا له بابًا إلى النار، فيأتيهِ مِنْ حرّها وسمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قبرهُ حتى تختلفَ فيه أضلاعُهُ، ويأتيهِ (وفي رواية: ويُمثل له) رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثياب، مُنتِنُ الرّيحِ، فيقولُ: أبشِر بالذي يسوؤك، هذا يومُك الذين كُنتَ تُوعدُ، فيقولُ: وأنت فبشّرك اللهُ بالشرّ من أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجئ بالشّرّ! فيقولُ: أنا عملُك الخبيثُ، فواللهِ ما علمتُكَ إلاّ كنتَ بطيئًا عن طاعةِ الله، سريعًا إلى معصيةِ اللهِ، فجزاكَ الله شرًّا، ثم يُقيّضُ له أعمى أصمُّ أبكمُ في يده مِرزبّة لو ضُرب بها جبلُ كان ترابًا، فيضربهُ ضربةً حتى يَصيرَ بها ترابًا، ثم يعيدهُ الله كما كان، فيضربُهُ ضربةً

وهذا المثال من أقوى الأدلة على ضحد افتراءات وأوهام منكري عذاب القبر.

وقال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله: "واعلَمْ أن عذابَ القبر هو عذاب البرزخ؛ فكل مَن مات وهو مستحقٌّ للعذاب، ناله نصيبُه منه؛ قُبِر أو لَم يُقبَر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادًا ونُسِف في الهواء، أو صُلِب، أو غرِق في البحر؛ وصَل إلى رُوحه وبدنه من العذاب ما يصِلُ إلى المقبور.

إلى أن قال: فالحاصلُ أن الدُّورَ ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعَل الله لكل دار أحكامًا تخصُّها، وركب هذا الإنسان من بدَنٍ ونفس، وجعَل أحكامَ الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تَبَعٌ لها، وجعَل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تَبَعٌ لها، فإذا جاء يومُ حشرِ الأجسادِ وقيامُ الناس من قبورهم، صار الحُكم والنعيم والعذابُ على الأرواح والأجساد جميعًا.

فإذا تأملتَ هذا المعنى حقَّ التأمل، ظهَر لك أن كون القبر روضةً من رياض الجنة، أو حفرةً من حفر النار - مطابِقٌ للعقل، وأنه حقٌّ لا مِرية فيه، وبذلك يتميَّزُ المؤمنون بالغيبِ مِن غيرهم.

ويجب أن يُعلَمَ أن النارَ التي في القبر والنَّعيمَ ليس مِن جنس نار الدنيا ولا نعيمِها، وإن كان اللهُ تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه والتي تحته، حتى يكون أعظمَ حرًّا مِن جَمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا، لم يُحسُّوا بها، بل أعجبُ من هذا أن الرَّجُلينِ يُدفَن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرةٍ من النار، وهذا في روضةٍ من رياض الجنة.

ويجب على المؤمن الإيمان بكل ما ورد في الكتاب والسنة مما يتعلق بعالم الغيب، مثل: عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين؛ وغيرها من الأمور الغيبية التي ينبغى الإيمان بها، واعتقاد صحة وجودها، دون البحث في كيفية وقوعها، وإعمال العقل فيها لكونها خارجة عن قدرته ومجال إدراكه.

وقد يقول بعض منكري عذاب القبر ، بكل سداجة وبلادة: إنا إذا نظرنا إلى الميت وهو جثة هامدة، لا نرى عليه أثرا من آثار العذاب والألم ولو كان من المذنبين والعصاة الظالمين. وإذا كشفنا عن قبره لا نرى فيه ألسنة النار ولا نسمع أنينا ولا صراخا !؟ إلى غير ذلك من الحجج الواهية والكلام السخيف. ولو شاء الله لأطلعنا على ذلك، لكنه رحمة بنا، وعلمه بضعفنا وعدم تحملنا لرؤية هذه المشاهد والأحوال الرهيبة أو الإحساس بها، غَيَّبَها عنا. ولذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن شعبة عن قتادة عن أنس، أنه قال: "لولا ألا تدافَنوا، لدعوت الله أن يُسمِعَكم من عذابِ القبر"[19].

وكما أننا لا نشعر بنائم بجنبنا وهو يتألم بدنيا أو روحيا، بسبب أحلامه المفزعة، فكذلك غُيِّب عنا الاطلاع على أحوال الميت وإحساساته.

19- "صحيح مسلم"، مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هج)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر 1374هج- 1955 م، ج4، ص 200.

أثناء النوم، من الأرواح المتوفاة، وهو ما يستنبط من قوله تعالى: "ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الزمر 39). قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره: "حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا الحسين، حدثنا عامر، حدثنا أسباط، عن السديفي قوله تعالى: "والتي لم تمت في منامها" (الزمر 42)، قال: يتوفاها في منامها، فيلتقي روح الحي وروح الميت، فيتذاكران، ويتعارفان، قال: فترجع روح إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتُحبَس".[22]

وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف " فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى " أي : يعيدها ".[23]

والمَرائي تشهد للقاء أرواح الأحياء والأموات؛ "وقد دلَّ التقاء أرواح الأحياء والأموات : أن الحيَّ يرى الميت في منامه ، فيستخبره ، ويخبره الميت بما لا يعلم الحيُّ ، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي ، والمستقبل ، وربما أخبره بمالٍ دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه ، وربما أخبره بدَيْن عليه ، وذَكَر له شواهده ، وأدلته.

22- " تفسير القرآن العظيم" لابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت 327)، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ط3- 1419هج.

23- "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي،...، ج15، ص 170.

لا يصلُ مِن هذا إلى جاره شيءٌ من حرِّ ناره، ولا مِن هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسعُ من ذلك وأعجبُ، ولكن النفوس مُولَعة بالتكذيب بما لَم تُحِطْ به عِلمًا"[20].

تلاقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات

الروح وما أدراك ما الروح؛ مخلوق عظيم وفريد من نوعه، أكرمه الله بأن أسكنه جسد آدم عليه السلام بعد النفخة الإلهية؛ لقوله تعالى: "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي" (الحجر 29). وعلم الإنسان بالروح لا يساوي شيئا بجانب علم الله بها؛ لقوله عز وجل: "قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً" (الإسراء 85). وبفضل هذه النفخة الإلهية تبوأ الإنسان وظيفة الاستخلاف في الأرض، وحظي بمقام العبودية، أكرم به من مقام وأعظم به من شأن ومنزلة.

قال الفقيه الأديب القاضي عياض السبتي:

ومما زادني شرفاً وتيــهــاً ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيا[21]

ولقد اصطفى الله هذه الروح، ووهبها من المزايا والقدرات ما لا يحصى ولا يعد، والتي منها؛ قدرة الروح الحية على لقاء ما شاء الله لها،

20- مجموع الفتاوى، ابن تيمية،... ج4، ص 284.

21- "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر"؛ عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (ت 1335) هج)، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار - من أعضاء مجمع اللغة العربية، دار صادر، بيروت، ط2 ، 1413هج-1993م، ص 235.

(القصص 88). بينما رجح علماء آخرون اعتمادا على شواهد قرآنية، عدم فناء الروح بعد موتها. ويستدلون على رأيهم بقوله تعالى: "وَلَا تَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (آل عمران 169- 170).

"الأرواحُ مَخلوقةٌ بلا شَكٍّ، وهيَ لا تُعدَمُ ولا تَفنَى، ولَكِنَّ موتَها مُفارَقةُ الأبَدانِ، وعِندَ النَّفخةِ الثَّانيةِ تُعادُ الأرواحُ إلَى الأبَدانِ"[27]

"والصواب أن يقال: مَوتُ النُّفوسِ هو مُفارَقَتُها لِأجسادِها وخُروجُها مِنها، فإنْ أريدَ بموتِها هَذا القَدْرُ فهِيَ ذائِقةُ المَوتِ، وإن أريدَ أنَّها تُعْدَمُ وتَضمَحِلُّ وتَصيرُ عَدَمًا مَحضًا فهِيَ لا تَموتُ بهَذا الاعتِبارِ، بَل هِيَ باقيةٌ بَعدَ خَلقِها في نَعيمٍ أو عَذابٍ، كَما سَيأتي إنْ شاءَ اللهُ تعالى بَعدَ هَذا، وكَما صَرَّحَ به النَّصُّ أنَّها كَذلك حَتَّى يَرُدَّها اللهُ في جَسَدِها"[28].

معنى هذا أن أرواح العباد عندما تموت، أي: تفارق الأبدان، تظل حية في عالمها البرزخي منعمة أو معذبة، حتى يردها الله إلى أجسادها التي ينشئها سبحانه من عجب الذنب، فيخرج الناس من قبورهم سراعا بعد النفخ في الصور. قال تعالى: "وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ" (يس 50).

هذا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة في موضوع حياة الأرواح في البرزخ، وأنها تمكث حية إلى أن ترجع إلى

27- "مجموع الفتاوى"، ابن تيمية،...، ج4، ص 279.

28- "الروح"، ابن القيم،... ص20.

وأبلغ من هذا : أنه يخبر بما عملَه من عملٍ لم يطلع عليه أحد من العالمين ، وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا ، فيكون كما أخبر ، وربما أخبره عن أمورٍ يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره "[24].

"وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: "رأيت أبي في النوم بعد موته كأنه في حديقة، فدفع إلي تفاحات فأولتهن الولد، فقلت: أي الأعمال وجدت أفضل؟ فقال: الاستغفار أي بني".[25] "وقال عبد الله بن المبارك: رأيت سفيان الثوري في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت محمدا وحزبه."[26]

والخلاصة أن تلاقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات من الأمور المجمع علها والمسلم بها بين أهل العلم، ولا ينكرها إلا جاهل.

هل تفنى الروح حين تموت؟

اختلف العلماء في شأن موت الروح، أي: هل الروح تموت وتفنى، أم أن موتها لا يعنى فناؤها؟ فذهبت طائفة منهم إلى أنها تموت باعتبارها نفسا مصداقا لقوله عز وجل: "كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ" (آل عمران 185). وقوله سبحانه: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ" (الرحمن 25 - 26). وقوله جل في علاه: "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ"

24- "الروح"، ابن القيم،... ص42-43.

25- المرجع نفسه، ص44.

26- "المنامات"، ابن أبي الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ط1، 1413هج-1993م، ص 41.

ولما كان المظهرالروحي لهذا الجوهر أسبق في الوجود عن مظهره النفسي، افتتحت الكتاب بموضوع الروح، ومنه أنتقل بتوفيق من الله إلى الحديث عن موضوع النفس.

أجسادها فجر يوم القيامة. حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ :أَنبأَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يُبْعَثُ".[29]

يستخلص من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وأقوال المفسرين والعلماء الأجلاء، أن الروح مخلوق من مخلوقات الله عز وجل، وأنه سبحانه وحده المطلع على حقيقتها وكنهها. كما أن هذه الروح التي يتولى الملك، بأمر من الله، نفخَها في الجنين، لا تفنى بعد موتها. ثم إنها دخلت الجنين روحاً، ومكثت في بدن صاحبها نفساً، ثم غادرته بعد موته روحاً، كما ورد في حديث البراء بن عازب المشار إليه آنفا: " حتى إذا خَرَجَت روحُه صلّى عليه كلُّ ملكٍ بين السماء والأرضِ، وكُلُّ ملك في السماءِ، وفتحت له أبوابُ السماء...". وهذا المشهد من أقوى الأدلة على أن الروح والنفس شيء واحد، وكيان واحد، وجوهر واحد، لا كما يزعم المتفلسفة وكثير من المفكرين والعلماء والعوام، من أن الروح والنفس شيئان اثنان أو كيانان منفصلان، أولئك الذين لا يتدبرون القرآن كما أمر الله سبحانه. قال العليم الحكيم: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ" (محمد 25).

29- " سنن ابن ماجه" ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ج 2، ص 128

الفصل الثاني

النفس في القرآن

النفس لغة واصطلاحا

النفس في القرآن

الإنسان مسؤول ويختار لنفسه بنفسه

من نسي الله أنساه الله نفسه

"لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

كيف يظلم العبد نفسه ؟

كيف يبيع العبد نفسه لله ؟

تزكية النفس

النفس ثلاثة أنواع

النفس الأمارة بالسوء

النفس اللوامة

النفس المطمئنة

حفظ النفس من الكليات والضروريات الخمس

النفس في القرآن

النفس لغة واصطلاحا

النفس في اللغة لفظ يطلق ويراد به عدة معان، منها: الروح، فيقال: خرجت نفسه، أي؛ روحه. وتطلق النفس على الجسد. ويقال: ثلاثة أنفس؛ ويراد بها الإنسان. ونفس الشيء؛ عينه يؤكد به، يقال: رأيت فلانا نفسه، وجاءني بنفسه.[30]

وقال علي بن محمد الجرجاني: "هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس، والحركة الإرادية."[31]

واختلفوا في مسمى النفس والروح؛ هل هما شيء واحد أم شيئان مختلفان؟ لكن علماء المسلمين ذهبوا إلى أن مسماهما واحد. قال الجوهري: النفس الروح؛ يقال خرجت نفسه. والفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات. "وذكر السهيلي أن الروح التي ينفخها الملك

---

[30] - "مختار الصحاح"، االرازي؛ زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت 666هج)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا،.ط5، 1420هج- 1999م، ص 316.

[31] - "التعريفات"، الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (816 هج)،المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط1، 1403هج-1983م، ص 242.

وقال البر الرحيم: "يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ" (البقرة 8).

وقال الحي القيوم: "أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ" (البقرة 43).

وقال الحليم الشكور: "وَاتَّقُواْ يَوۡماً لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡئاً وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ" (البقرة 47).

وقال العليم الحكيم: "وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقاً كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقاً تَقۡتُلُونَ" (البقرة 86).

وقال العزيز الحكيم: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّاراً حَسَداً مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ"(البقرة 108)

وقال الحق جل وعلا: "وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ" (البقرة 109).

وقال الحي القيوم: "وَاتَّقُواْ يَوۡماً لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡئاً وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ" (البقرة 122).

في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء".[32]

النفس في القرآن

ذُكِرت النفس في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها:

قال الحق سبحانه: "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالاَنفَ بِالاَنفِ وَالاُذُنَ بِالاُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥوَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ"(المائدة 47).

وقال العلي الكبير: "وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ"(الأنعام 152)

وقال العليم الحكيم: "وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (يوسف 53)

وقال اللطيف الخبير: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ" (النازعات 39)

وقال الغفورالرحيَم: "يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً" (الفجر 30 - 31)

---

[32]- " تفسير القرآن العظيم"، ابن كثير؛عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1419هج-1998م، ج5، ص 107.

- وتطلق النفس في القرآن على ذات الله عز وجل؛ قال العلي القدير: "وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (آل عمران 28).
- وتأتي النفس بمعنى القلب؛ قال الحق سبحانه: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ" (ق 16)، أي؛ قلبه، وقوله سبحانه: " إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ" (النجم 23)، أي؛ القلوب.

ويعرض القرآن الكريم، من خلال آيات النفس، صورا ومشاهد ومعاني للنفس الإنسانية في جميع أحوالها ومظاهرها، وأوصافها وأخلاقها، ومدى علاقتها بالدنيا والآخرة. وسأتناول بإذن الله نماذج من تلك المشاهد والمعاني القرآنية المرتبطة بأحوال النفس.

الإنسان مسؤول ويختار لنفسه بنفسه

قال الحق سبحانه: "مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا" (الإسراء 15). وقال العليم الحكيم: "وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (فاطر 18). وقال السميع البصير: "وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" (لقمان 12). وقال الغفور الرحيم: "مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا" (فصلت 46). في هذه الآيات الكريمة يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه غني عن عبادتنا وطاعتنا، وأن العبد إذا اختار الهدى، وزكى نفسه، وشكر خالقه، وعمل صالحا، فإن سعيه هذا ينفعه في الدنيا والآخرة. واختياره لطريق الهدى، وحرصه على تزكية نفسه، وعلى فعل الخيرات، لا يتحقق دون توفيق من الله، لقوله سبحانه: "وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ

وقال الغني الحميد: "وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ" (البقرة 129).

وقال البارئ المصور: "وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ" (البقرة 154).

وقال الملك الحق المبين: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ" (البقرة 207).

إلى غيرها من الآيات الجليلة المتعلقة بالنفس.

ولقد ورد لفظ النفس في القرآن الكريم على عدة معان، منها :

- النفس بمعنى الإنسان، قال العليم الحكيم: "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ " (البقرة 47) أي: لا ينفع يوم القيامة إنسان إنسانا. وقوله عز وجل :"وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ" (المائدة 47) أي: الإنسان بالإنسان.

- والنفس بمعنى آدم عليه السلام: قال العليم الحكيم: " يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ " (النساء 1). والمقصود بالنفس الواحدة: نبي الله آدم عليه السلام ، وإلى هذا المعنى ذهب أغلب المفسرين.

- وتطلق النفس على الروح: قال اللطيف الخبير: "وَالْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ" (الأنعام 94)، أي: أرواحكم. وقوله عز وجل: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى" (الزمر 39).

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله: " وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ " أي: من يعمل صالحًا فإنما يعمله لنفسه."[34]

"والقول في تأويل قوله تعالى : "مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِۖ" (فصلت 45)؛ يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه "فَلِنَفْسِهِ" يقول: فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجب في المعاد من الله الجنة، والنجاة من النار. "وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا" يقول: ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم"[35].

وقال الحق سبحانه: "إِنَّا عَرَضْنَا اَ۬لَامَانَةَ عَلَي اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَاۖ وَحَمَلَهَا اَ۬لِانسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاًۖ" (الأحزاب 72). قال المفسرالبغوي رحمه: "أراد بالأمانة الطاعة والفرائض التى فرضها الله على عباده، عرضها على السماوات والأرض والجبال، على أنهم إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، وهذا قول ابن عباس.

وقال ابن مسعود: الأمانة: أداء الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل فى

---

[34] - "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، الطبري،...، ج20، ص 156.

[35] - المصدرنفسه، ج21، ص 187.

فِي قُلُوبِكُمْ" (الحجرات 7)، ولقوله عز وجل: " مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ " (النساء 78).

جاء في "الوسيط في تفسير القرآن المجيد": ""من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها" (الإسراء 15)؛ أي: من اهتدى إلى الطريق المستقيم، وقدم في حياته العمل الصالح فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه، ومن ضل عن الطريق القويم، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده، ولا تحمل نفس آثمة، إثم نفس أخرى، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب.

وقد تكرر هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله- تعالى-:وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها، وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى. وقوله- تعالى-: وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى"[33].

" وقوله: "وَمَنْ تَزَكَّى فإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ"؛ يقول تعالى ذكره: ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته. فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به.

[33]- "الوسيط في تفسير القرآن المجيد"، الواحدي،...، ج2، ص 346.

نفس بشرية عن عمرها، وعن علمها، ماذا عملت فيهما؛ هل أطاعت ربها أم عصته وضيعت ما وهبها من حياة، في اللهو والغفلة عن الدين، وعن علمها هل عملت به وتنورت بنوره، أم آثرت عليه ظلام الجهل وأهواء النفس.

ودينننا الحنيف يخبرنا أن كل نفس مسؤولة تجاه الخالق سبحانه، وتجاه نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ومسؤولة تجاه الوالدين، وتجاه الزوجة والأولاد والأقارب من ذوي الرحم، ومسؤولة تجاه الجار، وتجاه الضعفاء والمساكين والمظلومين، قدر استطاعتها، إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ومسؤولة كذلك عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ باليد أو اللسان أو القلب، وذلك أضعف الايمان. ولتعلم كل نفس اختارت حمل الأمانة، أن المسؤولية لا تنفك عنها في كل وقت من أوقات حياتها الدنيوية، سواء أكانت مسؤولية تتحملها عن نفسها، أو مسؤولية تتحملها عن أهلها وأقاربها ومجتمعها ودينها.

هذا وإن شعور النفس بمسؤوليتها، والقيام بمقتضاها وواجباتها، دليل على طاعتها، واستقامتها، واستجابتها لدعوة الله سبحانه، ولدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم. ويوم كانت نفوس المسلمين حريصة على القيام بمسؤولياتها وواجباتها، كانت الحضاره الإسلامية في ربوع أرض المسلمين، تنشر الدين، والعلم، والعدل، والقيم الإنسانية الرفيعة. وعندما أصاب تلك النفوس داء الأمم، وفرط المسلمون في أماناتهم ومسؤولياتهم، ضعفوا وذُلّوا، فتغلب عليهم أعداؤهم من النصارى واليهود

المكيال والميزان، وأشد من هذا كله الودائع. وقال مجاهد: الأمانة: الفرائض، وقضاء الديون. وقال أبو العالية: ما أمروا به ونهوا عنه.[36] وتفيد هذه الآية الكريمة أن الإنسان اختار بمحض إرادته حمل الأمانة، التي هي مسؤولية عظيمة، لكنه لم يحملها حق الحمل، بل قصر وتهاون في القيام بواجباتها، إلا من رحم الله، وقليل ما هم، كما ورد في القران الكريم. وتتضمن الأمانة في أبعادها العميقة؛ قيام الإنسان بوظيفة الاستخلاف في الأرض، وتطبيق شريعة الله، والقيام بما أوجبه الله من العبادات، وتعامل المسلمين فيما بينهم وفق ضوابط الدين الحنيف والهدي النبوي الشريف، ونشر رسالة الإسلام بما تشتمل عليه من عقيدة التوحيد، والشريعة الغراء. والله سبحانه وتعالى سيجزي كل نفس بما عملت في دنياها؛ قال الله عز وجل: " ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ " (غافر 16). وقال سبحانه: "كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" (المدثر 38). وقال سبحانه: "ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً" (الإسراء 14).

عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ" "[37]، أي؛ أن الله سائل كل

---

[36]- "معالم التنزيل في تفسير القرآن"، البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510هج). المحقق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط1، 1420هج، ج3، ص 568.

[37]- " سنن الترمذي"، الترمذي،...، ج4، ص 512.

وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها. ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسيانا آخر؛ وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم على عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها.(...)

فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون وأين يستقرون، قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيم لا يرحل، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله لفلان بن فلان بالأمان من عذابه والفوز بجزيل ثوابه".[38]

والله لكأن فقيهنا محمد بن القيم رحمه الله، ينظر بنور الله إلى ما آلت إليه أحوال المسلمين من تضعضع، وتصدع، وتكالب على الدنيا الفانية، واتباع للأهواء والشهوات المهلكة الطاغية، وإعراض عن الذكر،

---

[38]- " تفسير القرآن الكريم". ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف اشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1410هج، ص 539-540.

المشركين؛ " سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا " (الأحزاب 62).

من نسي الله أنساه الله نفسه

قال العزيز الحكيم: "وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ" (الحشر 19). هذا وعيد من الله شديد لأولئك الذين أعرضوا عن الخالق وعن الذكر، كما أنه عقوبة مُعجَّلة لهم في الدنيا قبل الآخرة. ومن أشقى ممن عذبه الله بأن أنساه نفسه، فهام على وجهه، وخسر الدنيا والآخرة ؟.

قال المفسر محمد بن قيم الجوزية رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ" (الحشر 18-19)، قوله تعالى: "ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأنساهم أنْفُسَهُمْ": فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعاداتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها، وحظها وإراداتها. فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجهة، وإن كانوا عالمين بها من وجوه.

قوله تعالى :"وَلا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأنساهم أنْفُسَهُمْ" عاقبهم على نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم، فنسوا مصالحها أن يفعلوها

وأذاقوهم كؤوس الذل والهوان. والأدهى والأمر أن تسمع الآن ببعض حكام المسلمين، يتواطؤون مع اليهود الصهاينة على قتل المسلمين في غزة والضفة الغربية من فلسطين المحتلة. وهناك كثير من العلمانيين والحداثيين العرب المعجبين باليهود والنصارى، لا يخفون مودتهم ومؤازرتهم للصهاينة الغاصبين. لقد ساء حالنا بعد أن بلغ السيل الزبى واستوى الماء والخشبة، نسأل الله التوبة والأوبة واللطف فيما جرت به المقادير.

"لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

"قال الحق سبحانه: "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ" (الرعد 12)، "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ من النعمة والإحسان ورغد العيش، حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها.. وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة"[40].

جاء في كتاب: "الجواب الكافي" :"من عقوبات الذنوب أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا لسبب ذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة. وقد قال تعالى: "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ

---

[40] - "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، السعدي،...ص 469.

وهجر للقرآن الكريم، والاستجابة لوسوسة ودعوات الشيطان اللعين: "وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم" (إبراهيم 22).

فلا تجد من المسلمين اليوم، سوى من رحمه الله، إلا وهمه جمع حطام الدنيا من حلال أو حرام. كما تجده منهمكا في الذنوب والمعاصي؛ كبائرها وصغائرها، لا تحدثه نفسه بالتوبة، ولا يعرف قلبه للاستغفار سبيلا. إنه الوهن وما أدراك ما الوهن؛ ذاك الورم الخبيث الذي أسقم قلوب المسلمين، حتى تجرأ عليهم اليهود والنصارى الذين استباحوا ديارهم، وعاثوا فيها فسادا. إنه المرض المُهلك الذي أشار إليه نبينا صلوات الله وسلامه عليه في "حديث القصعة": "عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ".[39]

وكان من نتائج هذا الوهن أن تغلب النصارى المشركون على المسلمين، واحتلوا بلادهم عقودا طويلة، وقتلوا، وعذبوا، وسفكوا الدماء،

---

[39] - "سنن أبي داود"، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ت.، ج4، ص 111.

أنها تعكس طبيعة ونوع سلوكه انطلاقا مع تعامله معها إيجابا أو سلبا. فالتغيير الإيجابي النافع في الدنيا والآخرة، هو المبسوط والمبين في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه. ويتجلى هذا التغيير الإيجابي في حمل النفس على طاعة خالقها، والعمل بشريعته. كما يتأسس على أسس ومبادئ متينة مختلفة من بينها؛ العلم النافع وتزكية النفس. قال الحق سبحانه: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُۖ" (البقرة 128). وقوله عز وجل: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّيٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّيٰهَاۖ" (الشمس 7-10). فلا سبيل إلى إصلاح المجتمع وتغييره نحو الأفضل، إلا بتغيير ما بالنفس من عقائد، وتصورات وأفكار باطلة، وأخلاق وسلوكات منحرفة، وحملها على طاعة الله، والإذعان للعقيدة الصحيحة ولشرع الله المجيد.

ثم إن التغيير الاجتماعي والنفسي، سواء إلى الأحسن أو إلى الأسوء، يكون من الله تبعا للتغيير الذي يختاره الإنسان ويحدثه لنفسه بنفسه. فالله سبحانه وتعالى يغير حال المسلمين مثلا، من الضعف والتخلف والهزيمة إلى التمكين والقوة والنصر، إذا تابوا إلى الله، وأحدثوا في أنفسهم تغييرا نحو التمسك بالدين والرجوع إلى الله سبحانه. والعكس بالعكس؛ أي أن الله لا يغير ما بقوم من هداية، وإيمان، وعزة، وتمكين في الأرض، إلا إذا سلكوا مسلك الظلم والفساد، واختاروا طريق الزيغ والغواية. وهذه سنة عامة ومطردة في حياة البشر جميعا.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ". وقال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ". فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمته التي أنعم بها على أحد، حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد... فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز، قال تعالى: إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ". وفي بعض الآثار الإلهية عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب عبيدي إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره، فينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب، وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها * فإن الذنوب تزيل النعم

وحطها بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النقم."[41]

إن سنة التغيير المشار إليها في قوله تعالى: "إِنَّ أَللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ" (الرعد 11) من أعظم السنن الاجتماعية والنفسية، المهيمنة، بإذن خالقها، على حياة الإنسان فردا أو جماعة، كما

[41]- " الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هج)، دار المعرفة المغرب، ط1، 1418هج-1997، ص 74.

يومي هذا، كلُّ مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا".[44]

ومن الآيات التي ورد فيها ظلم الإنسان لنفسه: قوله سبحانه وتعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ" (يونس 44). وقوله عز وجل: "وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ" (آل عمران 117). وقول العزيز الحكيم: "إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا" (النساء 96). قال الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير رحمه الله، في تفسير هذه الآية: "الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية".[45]

وقد يندرج في عموم هذه الآية أعداد كثيرة من المسلمين الغافلين المقيمين، الآن، في بلاد الغرب، الذين لم يحافظوا على دينهم كما أمر الله عز وجل، فأضاعوا أنفسهم وأبناءهم، نسأل الله لهم التوبة والهداية.

ويظلم الإنسان نفسه باقترافه للذنوب والمعاصي، وغشيانه للمحرمات والفواحش والمنكرات المهلكة. وهذا السلوك المحرم الشنيع،

[44] - "صحيح مسلم"، مسلم؛ ج4، ص 197.

[45] - "تفسير القرآن العظيم"، ابن كثير، ج2، ص 344.

"حَدَّثَنِي أَبِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلِ بْنِ هِلَالِ بْنِ أَسَدٍ، مِنْ كِتَابِهِ، قَالَ :حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ، قَالَ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي خَالِدٍ - عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ :يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ" (المائدة 107) ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " :إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ".[42] وعقاب الله يكون نتيجة عدم تغييرهم للمنكر، أي؛ عدم قيامهم بتغيير ما بأنفسهم من ذنوب ومعاصي ومنكرات، لذلك العقاب جزاء وفاقا ولو وُجد فيهم بعض الصالحين للحديث النبوي: "أَنَهلَكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثُر الخَبَث".[43]

كيف يظلم العبد نفسه ؟

إن الله عز وجل خلق الإنسان على الحنفية السمحاء؛ مفطورا على الإيمان بخالقه، مقرا له بربوبيته، كما جاء في قوله تعالى: "إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآ" (الأعراف 172). ولقد ألهم الله العليم الحكيم، نفوس العباد التقوى، كما ألهمهم الفجور؛ "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا" (الشمس 8)، واختار كثير منهم سبيل الشيطان والغي والعصيان. فعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مما علّمني

[42] - "مسند الإمام أحمد"،...، ج1، ص 178

[43] - "صحيح البخاري"،...، ج9، ص 48.

والشح من أخطر أنواع الظلم المنتشرة بين العباد؛ لما يترتب عليه من مفاسد عظيمة، وخراب للعلاقات الاجتماعية. والشح هو الحرص الشديد على جمع المال بكل الطرق من حلال أو حرام، والبخل به وعدم إنفاقه على الفقراء والمحتاجين من ذوي الرحم وغيرهم. والشح دليل واضح على التمسك بالدنيا وحبها والركون إليها، وفعل كل شيء في سبيل الحصول عليها.

.ومن أقبح ألوان الظلم كذلك؛ وقوع العبد في الغيبة والنميمة، وتتبع عورات الناس. "حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، وَالجَارُودُ بْنُ مُعَاذٍ قَالَا :حَدَّثَنَا الفَضْلُ بْنُ مُوسَى قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ، عَنْ أَوْفَى بْنِ دَلْهَمٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ :صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ".[48]

ومن أنواع الظلم أيضا؛ الإفلاس، حيث يغدو العبد مفلسا وهو لا يشعر. "حدثنا قتيبة بن سعيد وَعَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ .قَالَا :حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ) عَنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أبي هريرة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال" أتدرون من المفلس؟ " قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: "إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا،

---

[48] - "سنن الترمذي"، الترمذي،...ج4، 378.

كثيرا ما يكون سببا من أسباب حرمان الرزق؛ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ :حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"[46].

ومن أنواع الظلم التي ينزلها الإنسان بنفسه؛ الحسد، ذلك الخلق الذميم المهلك الذي يأكل الحسنات مثلما تأكل النار الحطب، كما جاء في الحديث النبوي. والحسود يشقى شقاء عظيما لأن قلبه يتألم ويتعذب، كلما رأى نعم الله سبحانه وتعالى تنزل على أقاربه، أو جيرانه، أو زملائه، تمنى زوالها وذهابها عنهم.

والشح أيضا ظلم ينزله العبد الجاهل بنفسه؛ قال الحق سبحانه: "وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ" (الحشر 9). حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حدثنا داود (يعني ابن قَيْسٍ) عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ جَابِرِ بن عبد الله؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم. حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم.""[47].

---

[46]- "سنن ابن ماجه"، ابن ماجة؛ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273هج)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، د.ت.، ج2، ص 334.

[47]- "صحيح مسلم"، ....، ج4، ص 996.

تضييع من استرعاه الله عليهم من الزوجة والأبناء والبنات، فإنه مسؤول عنهم.

هذا وإن ظلم العبد لنفسه لا حصر له: منه عقوق الوالدين، والإساءة إلى الجار، وعدم بذل النصيحة، والتفريط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع وجود القدرة، وعدم القيام، حسب الاستطاعة، بالإحسان إلى المسلمين لا سيما الأقارب والجيران. وأكبر أنواع الظلم المهلك للعبد في الدنيا والآخرة، هو الشرك بالله: قال الحق سبحانه وتعالى: " إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ" (النساء 48). وقال عز وجل: " يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان 12).

كيف يبيع العبد نفسه لله ؟

لعل أربح البيع وأزكاه وأدومه: بيع العبد نفسه لله، أي: بذلها له طاعة وطلبا لمرضاته سبحانه. قال الله عز وجل:

"إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرِيٰةِ وَالِانجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنَ اَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلذِے بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ" (التوبة 112). "يخبر تعالى خبرا صدقا، ويعد وعدا حقا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه "اشْتَرَى" بنفسه الكريمة "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ" فهي المثمن والسلعة المبيعة، "بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ" التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات

وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه. ثم طرح في النار".[49]

حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ. حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ مَرْزُوقٍ. حَدَّثَنِي عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قال :قال رسول الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ:"أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا. وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بما أمر به المرسلين .فقال: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ" (المؤمنون 52)، وقال: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ" (البقرة 171)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ. أَشْعَثَ أَغْبَرَ. يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك؟".[50]

ومن أنواع الظلم التي ينزلها العبد بنفسه؛ ظلمه لأهله ولأولاده. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ وَهْبِ بْنِ جَابِرٍ الْخَيْوَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كفى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ"[51]، فلا يجوز للأب

---

[49]- "صحيح مسلم"، مسلم؛...، ج4، ص 397.

[50]- المصدر نفسه، ج2، ص 703.

[51]- "سنن أبي داود، أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِستاني (ت 275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ت.، ج2، ص 132.

يتفضل الله على المؤمنين بقبول بيعهم أنفسهم له سبحانه بمجاهدتهم لها، والتقرب إلى خالقهم بألوان أخرى من الجهاد والتضحيات. قال الحق سبحانه: "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَّشْرِے نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَاللَّهُ رَءُوفُۢ بِالْعِبَادِۗ" (البقرة 205).

"لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ، ذكر صفات المؤمنين الحميدة ، فقال : "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" قال ابن عباس ، وأنس ، وسعيد بن المسيب ، وأبو عثمان النهدي ، وعكرمة ، وجماعة : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ، منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر ، فعل . فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة . فقالوا : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب " .قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي ، حدثنا عوف ، عن أبي عثمان النهدي ، عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قالت لي قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ! والله لا يكون ذلك أبدا . فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني ؟ قالوا : نعم . فدفعت إليهم مالي ، فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ربح

والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا للّه نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه ف "يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ" فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من اللّه مؤكدة بأنواع التأكيدات."وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ" التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق."وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا" أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم اللّه، "بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ" أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضًا، ويحث بعضكم بعضًا."وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من اللّه الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو اللّه جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب اللّه الكبار المنزلة على أفضل الخلق"[52]

هذا البيع للنفس مشروط بالجهاد وقتال المشركين؛ حيث يقاتل المؤمنون الكفار لتكون كلمة الله هي العليا، بعد أن باعوا أنفسهم وحياتهم الدنيوية لله عز وجل، وتم العقد بينهم وبين خالقهم سبحانه. ثم ظفروا في المقابل بالثواب العظيم الذي هو رضوان الله وجنته. وفي آية أخرى

---

[52] - "تيسير الكريم الرحمن"، السعدي...، ص 393-394.

الإِيمَانِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ (أَوْ تَمْلأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. وَالصَّلاَةُ نُورٌ. وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ. وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ. وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عليك. كل الناس يغدو. فبايع نفسه. فمعتقها أو موبقها." .[55]

فمما يستفاد من قول الله سبحانه: " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَّشْرِے نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اِ۬للَّهِۖ وَاللَّهُ رَءُوفُۢ بِالْعِبَادِۖ " (البقرة 205)"، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها، أو موبقها"؛ أن العبد في هذه الدنيا بائع نفسه لا محالة، فإما أن يبيعها لله ابتغاء مرضاته، فيعتقها من النار، أو يبيعها للدنيا مقابل حظوظ نفسه، وأهوائه وشهواته، أي؛ أن هناك من يبيع نفسه لله ويشتري دينه، بماله ونفسه ومخاوفه وآماله. وهناك من يبيع دينه مقابل شهواته ورغائبه، ومخاوفه وهواجسه، وأهوائه. والمؤمن الذي يبيع نفسه لله جل وعلا، قد وهب كل حياته لله ؛ شديد الحرص على اتباع أوامره واجتناب نواهيه، يلبي دعوة الله ويستجيب له ولرسوله في كل وقت وحين، ولا يرجو من وراء هذا البيع سوى ثواب الله ورضاه.

فليتفكر العبد في سعيه ومراد الله منه، فإن الدنيا دار الممر والآخرة دار المقر، وليختر أربح البيعين وأدومه وأبقاه، وليعقد عقد البيع المبارك مع خالقه ومعبوده، وليستمسك بالعروة الوثقى والقدوة النبوية المثلى، وليحرص على التجارة التي لا تبور.

---

[55]- "صحيح مسلم"، مسلم؛...، ج1، ص 203.

صهيب، ربح صهيب " مرتين .وقال حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم،فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته ، وانتثل ما في كنانته . ثم قال يا معشر قريش ، قد علمتم أني من أرماكم رجلا ، وأنتم والله لا تصلون إلي حتى أرمي كل سهم في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتم سبيلي ؟ قالوا : نعم . فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ربح البيع ، ربح البيع " . قال : ونزلت: "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد"[53]

وجاء في تفسير أبي محمد البغوي رحمه الله : "وقال أكثر المفسرين : نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم صهيب إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك يا أبا يحيى فقال له صهيب : وبيعك فلا تتحسر قال صهيب : ما ذاك؟ فقال : قد أنزل الله فيك وقرأ عليه هذه الآية"[54]. وحَدَّثَنَا إِسْحَاق بْنُ مَنْصُورٍ. حَدَّثَنَا حَبَّانُ بْنُ هِلَالٍ. حَدَّثَنَا أبان. حدثنا يحيى؛ أن زيدا حدثه؛ أن أَبَا سَلَّامٍ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ: "الطُّهُورُ شَطْرُ

[53]- "تفسير القرآن العظيم"، ابن كثير...، ج1، ص 121.

[54]- " معالم التنزيل في تفسير القرآن"، البغوي...، ج1، ص 266.

سعيد، مولى عبد الله بن عامر بن كريز يَقُولُ :سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم. ولكن ينظر إلى قلوبكم "وأشار بأصابعه إلى صدره."[56]، وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب."

ولما كانت النفس ميالة بطبعها إلى الشر، كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستعاذة بالله منها، ويقول في خطبه: " إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا"، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم، علم أبا بكر الصديق هذا الدعاء أن يدعو به كل صباح ومساء: "يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ :اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ "[57]، ولا عجب أن يكون هذا الدعاء من أدعية الصباح والمساء، فقد قال الله تعالى: "إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوٓءِ الَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ" (يوسف 53).

---

[56] - "صحيح مسلم"، مسلم:...، ج4، 986.

[57] - "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، الإمام أحمد بن حنبل (ت 241)، المحقق: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة،ط1، 1421هج-2001م، ج11، ص 138.

تزكية النفس

تزكية النفس وتربيتها، وتخليتها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل؛ من أهم الواجبات. كما أنها من أعظم مقاصد الشريعة وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله سبحانه :"هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ" (الجمعة 2).

ومن الآيات المتعلقة بتزكية النفس قوله عز وجل:"قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ" (الأعلى 14-15-16-17-18-19).

وقوله سبحانه: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا" (الشمس 7-8-9-10).

بل لعل المقصود الأكبر بزكاة المال؛ هو زكاة النفس لقوله سبحانه : "خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا" (التوبة 104) ، وكذلك زكاة التطوع في قوله عز وجل: "ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ" (الليل 18).

وهناك ترادف في المعنى بين زكاة النفوس وطهارة القلوب، فكلاهما يستهدف تطهير القلب من الشرك والمعاصي، كبيرها وصغيرها، وتطهيره من كل الأخلاق والصفات الذميمة والرذيلة. قال الحق سبحانه: " إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " (الشعراء 89). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سرح. حدثنا ابن وهب عن أسامة) وهو ابن زيد(؛ أنه سمع أبا

إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً" (الفجر 30-31). ثم يقول الله لتلك الروح الطيبة: "فَادْخُلِي فِي عِبَٰدِي وَادْخُلِي جَنَّتِي" (الفجر 32).

ومن ركائز تزكية النفس ومظاهرها العظيمة ؛ أمر المسلم نفسه وغيره بالمعروف، ونهيه نفسه وغيره عن المنكر؛ إذ التواصي بالحق من أوجب الواجبات. وكذا إسهام المزكي نفسه ومربيها، في إصلاح مجتمعه والاهتمام بأمور وقضايا المسليمن. ذلك أن تزكية النفس الشرعية والمحمودة، لا ينحصر نفعها في صاحبها وحده، وإنما يشمل أثرها الزكي كافة المسلمين لقوله تعالى: "إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الحجرات 10)، وغيرها من الآيات القرآنية الدالة على ذلك. وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَراحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ . مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى"[58]

هذا وقد ذكرت في القرآن الكريم، أحوال للنفس مرتبطة بأفعال وأوصاف أخرى، مثل الكسب، أي؛ ما تكسبه النفس في دنياها من خير أو شر. قال الحق سبحانه: "وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (آل عمران 25). وقال العليم الحكيم: "اِلْيَوْمَ تُجْزِيٰ كُلُّ نَفْسِۢ بِمَا كَسَبَتْۖ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۖ" (غافر 17). وقال السميع البصير: "لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتِۖ اِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِۖ" (إبراهيم 53). ومن بين تلك الأحوال أيضا؛ حال النفس فيما يخص قدرتها وتحملها لمسؤوليتها؛ قال البر الرحيم: "لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفساً اِلَّا وُسْعَهَاۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا إكْتَسَبَتْۖ رَبَّنَا لَا

[58] - "صحيح البخاري"، البخاري...، ج8، ص 10.

وينبغي لمن يروم تزكية نفسه، والترقي بها في مدارج الإيمان والإحسان، أن يجاهدها، ويُلزمها طاعة الله ورسوله، ويرغمها على فعل الخير وإن أبت وامتنعت. كما يعمل، تدريجيا على منعها وحرمانها، من الشهوات التي ألفتها وركنت إليها، والحيلولة بينها وبين أهوائها الطائشة المُهلكة. وسرعان ما تستسلم النفس الأمارة وتذعن للأوامر، إذا كان آمرها ذا إرادة صلبة وعزيمة قوية.

قال محمد البوصيري رحمه الله في "بردته":

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على ..... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

فاصرفْ هـواهـا وحاذرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ..... إنَّ الهوى ما تولَّى يُصمِ أوْ يَصـمِ

وَراعِها وهيَ في الأعمـالِ سائِمـةٌ .... وإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِـم

كَـمْ حَسَّنَتْ لَذَّة ِلِلْمَرءِ قـاتِلَـةً .... من حيثُ لم يدرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

ولا ريب أن العبد المؤمن الذي يجاهد نفسه، ويراقبها ويحاسبها، صابرا محتسبا، تتحول نفسه، بإذن الله، من نفس أمارة بالسوء إلى نفس لوامة، تلومه على فعل المعصية وعلى التفريط في الطاعة. وقد أقسم الله بهذه النفس، فقال :"لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ" (القيامة 1-2). ثم بعد مزيد من الصبر، والمصابرة، والمرابطة على ثغر قلبه، يظفر هذا العبد بنفس مطمئنة تُبشَّرُ عند موتها ببشارتين: بشارة من ملائكة الموت، وبشارة من الله عز وجل: "يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ

الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي أي: من المراودة والهمّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك.

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائرالذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده"[59].

وقال المفسر محمد سيد طنطاوي رحمه الله في تفسيره: "ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برئ منه ، فأنا التى قلت لزوجي فى حالة دهشتى وانفعالى الشديد،" مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سوءا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "، وما حملنى على هذا القول إلا هواى وشهواتى ، ونفسى؛ إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف عليه السلام."[60].

---

[59] - "تيسير الكريم الرحمن"، السعدي...، ص 452.

[60] - "التفسير الوسيط للقرآن الكريم"، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1997-1998 م، ج7، ص 377.

تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوَ اَخْطَأْنَاۖ" (البقرة 286). وقال اللطيف الخبير: "وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً اِلَّا وُسْعَهَآۖ" (الأعراف 41). ومن تلك الأحوال النفسية كذلك: حال اتباع النفس لهواها مما يسبب لها الضلال والهلاك؛ قال الحق سبحانه وتعالى: "اِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا اَ۬لظَّنَّ وَمَا تَهْوَي اَ۬لَانفُسُۖ" (النجم 23). وقال الغني الحميد: "أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوِيٓ أَنفُسُكُمُ إِسْتَكْبَرْتُمْۖ" (البقرة 86). إلى غيرها من الأحوال والأفعال والصفات المتعلقة بالنفس التي جاء ذكرها في القرآن الحكيم. فسبحان علام الغيوب المطلع على ما يجول في النفوس، أي: القلوب.

وكما ذكر القرآن الكريم التزكية المحمودة الواجبة، أشار أيضا إلى التزكية المذمومة والمحرمة. قال العلي الكبير: "اَلَمْ تَرَ إِلَي اَ۬لذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۖ بَلِ اِ۬للَّهُ يُزَكِّے مَنْ يَّشَآءُۖ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاًۖ" (النساء 48). وقال عز وجل: "فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِتَّقِيٓۖ" (النجم 31).

النفس ثلاثة أنواع

1- النفس الأمارة بالسوء

ورد في القرآن الكريم أن أحوال النفس ثلاثة: أمارة، ولوامة، ومطمئنة. فالنفس الأمارة بالسوء هي التي تأمر صاحبها وتغريه باتباع الأهواء والشهوات الدنيوية، واقتراف الذنوب والمعاصي. كما تجذب قلبه إلى المناطق السفلية الغريزية؛ مأوى الخواطر الشيطانية والوساوس الإبليسية؛ قال العلي القدير: "وَمَآ أُبَرِّۓُ نَفْسِيٓۖ إِنَّ اَ۬لنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوٓءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۖ إِنَّ رَبِّے غَفُورٞ رَّحِيمٞۖ" (يوسف 53). "ثم لما كان في هذا

يحاسب نفسه. وقال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل : إنها ذات اللوم. وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة ، وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغا حسنا. وفي بعض التفسير: إنه آدم عليه السلام، لم يزل لائما لنفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة. وقيل : اللوامة بمعنى الملومة المذمومة عن ابن عباس أيضا، فهي صفة ذم وهو قول من نفى أن يكون قسما؛إذ ليس للعاصي خطر يقسم به ، فهي كثيرة اللوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ، ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد إحسانا ، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته".[61]

ولوم العبد نفسه ومعاتبتها، يفضيان به لا محالة، إلى إصلاحها وتربيتها وتزكيتها، لكن بشرط قيامه بمحاسبتها؛ "فإن زكاتها وطهارتها موقوف على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر البتة، ولا تصلح إلا بمحاسبتها".[62] وقال الفقيه العلامة أبو الحسن علي الماوردي رحمه الله: "ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره (...). فإن كان

[61] - "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي...، ج19، ص 93.

[62] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1416هج-1996م، ج2، ص 177.

ومما لا شك فيه أن النفس الأمارة بالسوء قد اكتسبت أفعالها، وسلوكها، بإرادتها السيئة، وبسبب جهلها، وغفلتها، واستسلامها لأهوائها. وكلما قويت هذه الأسباب الثلاثة، وهيمنت على النفس، استمرأ صاحبها الفواحش والمنكرات، وألفت نفسه اقتراف الذنوب والمعاصي، ورأت الباطل حقا، والحق باطلا، وأحبت كل خلق مذموم، وكرهت كل خلق محمود، فاستعصت عليها التوبة إلا أن يشاء الله؛ فيتداركها برحمته وعفوه.

2- النفس اللوامة

يتجلى حال النفس اللوامة في كونها لا تتوقف عن لوم ذاتها، بسبب ما يصدر عنها من الأفعال المذمومة، وما تقترفه من الذنوب والآثام. فكلما وقعت في معصية، أو خالفت أمرا من أمور الدين، لاذت باللوم والتأنيب لذاتها، مما يدفعها للتوبة والاستغفار، والتضرع إلى الله عز وجل. كما أنها تلوم صاحبها على التقصير في عبادة ربها وطاعته، وعدم الاجتهاد في فعل الخيرات.

قال المفسر أبو عبد الله محمد القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اِللَّوَّامَةِۖ" (القيامة 2): "ومعنى : بالنفس اللوامة أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن : هي والله نفس المؤمن ، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلامي ؟ ما أردت بأكلي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ والفاجر لا

راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي." والنفس المطمئنة: هي النفس الآمنة من الخوف أو الحزن في يوم القيامة بسبب إيمانها الصادق، وعملها الصالح، والكلام على إرادة القول، أى: يقول الله تعالى على لسان ملائكته، إكراما للمؤمنين، عند وفاتهم، أو عند تمام حسابهم: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة، الناعمة بروح اليقين، الواثقة بفضل الله تعالى ورحمته." [65]

إن حال النفس المطمئنة حال شريف وجليل، ناتج عن السكينة والطمأنينة، والأمن واليقين بوعد الله سبحانه. ومن علامات رسوخ قدم النفس المؤمنة في حال ومقام الطمأنينة، تميزها في دنياها بالسكينة، والتواضع، والرضا، والتوكل، والصبر على الابتلاء، والدوام على التوبة والاستغفار، والاجتهاد في العبادة ونوافل الطاعات، والمسارعة في الخيرات، مع الإخلاص وصدق الإقبال على الله عز وجل.

حفظ النفس من الكليات والضروريات الخمس

أمر الشارع الحكيم بالعناية بالنفس، ورعايتها و حفظها من كل سوء وأذى، والعمل على دفع ما يضرها، وجلب ما ينفعها بما لا يتنافى أو يتعارض مع أحكام ومبادئ الشرع ومقاصده. ووعد الله بالفلاح والفوز بالجنة، كل من أصلحها وزكاها، كما أوعد بالخسران والبوار ودخول النار، كل من أهملها وأفسدها ودساها. قال الحق سبحانه: "قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (9) وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا" (الشمس 9-10). والكليات أو الضروريات

[65] - "التفسير الوسيط للقرآن الكريم"، محمد سيد طنطاوي:...، ج15، ص 394.

محمودا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه. وإن كان مذموما استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل".[63]

3- *النفس المطمئنة*

وحال النفس المطمئنة حالٌ محبوبٌ لدى القلوب الطاهرة الزكية؛ حيث تهفو إليه، وتسعى للظفر به من خلال مجاهدة النفس، والإكثار من الطاعات وفعل الخيرات، والزهد فيما يتكالب عليه الناس من حطام الدنيا، وزينتها، ولهوها.

قال المفسر أبو محمد البغوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ" (الفجر 30) "إلى ما وعد الله - عز وجل - المصدقة بما قال الله. وقال مجاهد : " المطمئنة " التي أيقنت أن الله تعالى ربها وصبرت جأشا لأمره وطاعته. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة ، وقال عطية : الراضية بقضاء الله تعالى. وقال الكلبي : الآمنة من عذاب الله. وقيل : المطمئنة بذكر الله ، بيانه : قوله " وتطمئن قلوبهم بذكر الله ". واختلفوا في وقت هذه المقالة ، فقال قوم : يقال لها ذلك عند الموت".[64]

وجاء في التفسير الوسيط: "ثم ختم سبحانه، السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين فقال: "يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ

---

[63]- " أدب الدنيا والدين"، الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت 450هج)، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، تاريخ النشر:1986، ص 356.

[64]- " معالم التنزيل في تفسير القرآن"، البغوي...، ج5، ص 253

2 -حفظها من جانب العدم، أي بإبعاد ما يؤدي إلى إزالتها، أو إفسادها، أو تعطيلها، سواء كان واقعًا أو متوقعًا. فحفظ الدين مثلًا، تحققه من جانب الوجود العقائد الأساسية، والعبادات الرئيسية، من صلاة وزكاة. ويحفظ من جانب العدم بالجهاد، وقتل المرتدين، ومنع الابتداع.

وأحكام العادات والمعاملات تؤدي إلى حفظ بقية الضروريات من جانب الوجود، وأحكام الجنايات تؤدي إلى حفظها في جانب العدم. والمصالح الضرورية الخمس المذكورة، تعتبر أصول المصالح وأسسها. والمصالح الحاجية إنما هي خادمة ومكملة للضرورية، مثلما أن التحسينية خادمة".[67].

وهكذا فإن مصالح الدين والدنيا والآخرة، قائمة ومبنية على هذه الكليات والضروريات الخمس، بحيث إذا تعطلت وقُوِّضت قواعدها، ضاع كل شيء، وخسر العبد دنياه وآخرته. وهذه الخسارة العظمى أكثر ما تتجلى في حياة الأمم المشركة والكافرة قديما وحديثا. ومنزلة حفظ النفس تأتي في الرتبة الثانية بعد حفظ الدين، الذي هو مقدم على حفظ النفس. ولهذا شرع ربنا الحكيم الجهاد وبيع النفس له سبحانه، حفاظا على الدين، وذوداً عن حياض المجتمع المسلم. ومعلوم أن النفس إذا انحرفت وضلت، وزاغت عن الطريق المستقيم؛ ضاع العقل والدين، وغدت الدنيا كدرا ما بعده كدر، والآخرة أدهى وأمرُّ.

---

[67]- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي؛ أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط2، 1412هج-1992م، ص 126.

الخمس، التي أجمع عليها العلماء وأهل السنة هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. والعناية بها وصونها وحفظها، أمر أساسي لإقامة الدين، والحفاظ على سير الحياة الاجتماعية كما أمر الله عز وجل، وتيسير سبل الاستخلاف في الأرض طبقا للشريعة الإسلامية وأهدافها ومقاصدها.

وإذا حصل تهاون أو تقصير في العمل بمقتضيات هذه الكليات الخمس، يعتري المجتمع المسلم خلل واضطراب في حياته الدينية، والاجتماعية، والنفسية، مما قد يؤدي به إلى ما لا يحمد عقباه؛ وهو ما تشاهده، وتحياه وتعانيه الأمة الإسلامية اليوم، التي فرطت في الحفاظ على هذه الكليات الخمس، وتهاونت في القيام بمقتضياتها. قال الفقيه المقاصدي أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي رحمه الله: "اتفقت الأمة بل سائر الملل، على أن الشريعة وضعت للمحافظة على هذه الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل".[66]

"وحفظ الشريعة للمصالح، الضرورية وغيرها، يتم على وجهين، يكمل أحدهما الآخر، وهما:

1 -حفظها من جانب الوجود، أي بشرع ما يحقق وجودها وتثبيتها، ويرعاه.

---

[66] - الموافقات، الشاطبي؛ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت790)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط1،، 1417هج-1997م،ج1، ص 31.

ومن مظاهر حفظ النفس كذلك؛ حفظها من الوقوع في الشبهات والشهوات المحرمة، مما قد يكون سببا في هلاكها. ولذا حض الشرع على سد كل الأبواب، ودفع كل الأسباب التي من شأنها أن تفضي بالمسلم إلى انتهاك ما حرم الله، والوقوع في مستنقع الشبهات والأهواء والشهوات المذمومة. ويشتمل الفقه الإسلامي على قواعد فقهية جليلة لها تعلق بموضوع حفظ النفس، منها:

"إذا ضاق الأمر اتسع"، و"لا ضرر ولا ضرار"، و"الضرر يزال"، و"الضرورات تبيح المحظورات"، و"درء المفاسد أولى من جلب المصالح"، و"البينة على المدعي واليمين على من أنكر".

والخلاصة أن الشرع الحكيم قد بيّن للنفس كل الحقوق التي تضمن لها الحياة السعيدة الآمنة، كما بين لها ما يتوجب عليها من الواجبات، وما يلزمها فيما يتعلق بوظيفة الاستخلاف والقيام بواجب الرسالة الدينية.

ولقد بين الشارع الحكيم أن حفظ النفس يبدأ بالمرحلة الجنينية، ثم مرحلة الرضاع، ثم مرحلة التنشئة والتربية الحسنة، وغرس مبادئ الدين الحنيف في القلوب، منذ الطفولة الأولى. كما حمَّل الشارع الوالدين مسؤولية حفظ الأبناء، ورعايتهم، وتربيتهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَحْسِبُالنَّبِيَّ ﷺ قَالَ :وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.".[68] ومن مظاهر حفظ النفس؛ النهي عن قتلها بغير حق. قال السميع البصير: "وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ" (الإسراء 33)، وحفظها من أن توقع الظلم بنفسها مصداقا لقوله سبحانه: "وَالذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ" (آل عمران 135). قال المفسر الطاهر بن عاشور رحمه الله: "وظلم النفس هو فعل ما نهى الله عنه وتوعد عليه، فإن فعله إلقاء بالنفس إلى العذاب، فكان ظلما للنفس".[69]

---

[68] - "صحيح البخاري"، البخاري؛ ج3، ص 150.

[69] - التحرير والتنوير ؛"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، ابن عاشور؛ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ج10، ص 186.

الفصل الثالث

العقل في القرآن

العقل لغة واصطلاحا

العقل في القرآن

أحاديث نبوية في العقل

جملة من أقوال السلف في العقل

دعوة القرآن إلى استعمال العقل في مختلف الميادين

ميدان الآفاق الكونية

ميدان النفس

ميدان التدبر في الآيات القرآنية

التدبر وإعمال العقل في حقيقة الدنيا

من فوائد وثمرات المنور بنور الوحي

1- الجمع بين العلم والعمل

2- نبذ التقليد المذموم

3- الابتعاد عن سبل الشيطان

فساد تصور المتفلسفة للعقل

العقل في القرآن

العقل لغة واصطلاحا

جاء في "لسان العرب": "العقل: الحجر والنهى، ضد الحمق. والجمع عقول. وفي حديث عمرو بن العاص: تلك عقول كادها بارئها، أي: أرادها بسوء (...). وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم: قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام. والمعقول ما تعقله بقلبك. والمعقول العقل: يقال ما له معقول، أي: عقل. والعقل: التثبت في الأمور. والعقل القلب، والقلب العقل. وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه(...). ويقال لفلان قلب عقول ولسان سؤول. وعقل الشيء يعقله عقلا: فهمه."[70]

والعقل في الاصطلاح: "هو القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل".[71]

العقل في القرآن

وردت مادة "عقل" في القرآن الكريم تسعاً وأربعين مرة؛ منها قوله تعالى: "وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا

[70]- "لسان العرب"، ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، ط3 1414هج، ج11، ص 158.

[71]- "المفردات في غريب القرآن"، الأصفهاني؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502هج)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412، ص 577.

نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ :أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ :بَلَى .قَالَ :فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ :بَلَى .قَالَ :فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا".[72] والحديث دليل على نقصان عقل المرأة، وقد نصّ القرآن على ذلك، قال تعالى: "وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا الْأُخْرَىٰۚ" (البقرة 281).

"حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ :حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ :حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قَالَ : دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا مَرِيضٌ فَتَوَضَّأَ فَصَبَّ عَلَيَّ أَوْ قَالَ: صُبُّوا عَلَيْهِ، فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ :لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةٌ، فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ".[73]

"حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ أَتَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَرَدَّهُ .فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ :يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ :أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ. مِنْ صَالِحِينَا. فِيمَا نُرَى. فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ .فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا

[72] - "صحيح البخاري"، البخاري؛ ج1، ص 68.

[73] - المصدر نفسه، ج7، ص 121.

عَقَلُوهُ" (البقرة 74). وقوله سبحانه :"وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ" (الملك 11). وقال الله عز وجل :"وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ" (العنكبوت 43). وقال الحق

سبحانه: "أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقرة 43). وقال السميع البصير: "إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (الأنفال 22).

وقال اللطيف الخبير: "كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (البقرة 72). وقال العليم الحكيم: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ" (الحج 44)، إلى غيرها من الآيات البينات. ولقد ذكرت مادة "عقل" في جميع تلك الآيات في صيغة الفعل؛ أي لا ذكر للعقل في القرآن في صيغة إسمية، مما يدل على أن وظيفة التعقل مقرونة بالقلب، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: " أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ " (الحج 44).

أحاديث نبوية في العقل

" حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ:

أَخْبَرَنِي زَيْدٌ هُوَ ابْنُ أَسْلَمَ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: "خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ :يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ .فَقُلْنَ :وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ :تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ .قُلْنَ :وَمَا

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنِّي رأيْتُ في المنامِ كأنَ جبريلَ عند رأسِي ، وميكائيلَ عندَ رِجْلَيَّ ، يقولُ أحدُهما لصاحِبِه : اضربْ لَهُ مَثَلًا ، فقال : اسمعْ سمعَتْ أذنُكَ ، واعقلْ عقِلَ قلبُكَ"[77]. يستفاد إذن من منطوق هذا الحديث النبوي، أن القلب هو الذي يعقل.

جملة من أقوال السلف في العقل

"حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ قَالَ :حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ خِدَاشٍ، ثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ مُجَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ :كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذُكِرَ الْحَسَبُ فَقَالَ : حَسَبُ الْمَرْءِ دِينُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ".[78]

وعَنْ مُجَاهِدٍ؛ "أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ"، قَالَ: الْأَيْدِي: الْقُوَّةُ، وَالْأَبْصَارُ: الْعَقْلُ[79].وقال مُطَرِّفُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: "مَا أُوتِيَ رَجُلٌ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ

---

[77]- صحيح الجامع الصغير وزياداته، الألباني؛ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت1420هج)، المكتب الإسلامي، د.ت.، ج1، ص 184.

[78]- "العقل وفضله"، ابن أبي الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281)، مكتبة القرآن – مصر، د.ت، ص 24.

[79]- المرجع نفسه، ص 25.

فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ. فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.".[74]

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم أرسل إلى قوم ماعز يسألهم عن عقله؛ أبه بأس أم لا ؟ لأنّ غير العاقل ليس مكلفاً، فلمّا أخبروه بأن لا بأس بعقله، أقام عليه الحد وأمر برجمه، مما يدل على أن العقل هو مناط التكليف.

و"حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ :وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ هَارُونَ، وَحَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي عَمْرٌو، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الْغِفَارِيِّ، عَنِ النُّعْمَانِ الْغِفَارِيِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ" :يَا أَبَا ذَرٍّ، اعْقِلْ مَا أَقُولُ لَكَ :لَعَنَاقٌ يَأْتِي رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أُحُدٍ ذَهَبًا يَتْرُكُهُ وَرَاءَهُ " يَا أَبَا ذَرٍّ، اعْقِلْ مَا أَقُولُ لَكَ :إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا " اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ: إِنَّ الْخَيْلَ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ إِنَّ الْخَيْلَ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ"[75]

و"حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ هِشَامٍ يَعْنِي ابْنَ عُرْوَةَ، قَالَ :أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ عَمٍّ لَهُ يُقَالُ لَهُ :جَارِيَةُ بْنُ قُدَامَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ :يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي قَوْلًا وَأَقْلِلْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعْقِلُهُ، قَالَ " :لَا تَغْضَبْ "فَأَعَادَ عَلَيْهِ مِرَارًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ " :لَا تَغْضَبْ ".[76]

---

[74]- المصدر نفسه، ج3، ص 323.

[75]- "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، الإمام أحمد بن حنبل...، ج35، ص 150.

[76]- المصدر نفسه، ج25، ص 330.

لم يزده السلطان عزا، ولا المال يرفعه قدرا، ولا عَقلَ لمن أغفله عَن أخراه، مَا يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الزمانة الجهل، كذلك أشد الفاقة عدم العقل".[87]

وقال أيضا: "أفضل ذوي العقول منزلة، أدومهم لنفسه محاسبة، وأقلهم عنها فترة. والعاقل يحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، فإذا وقع فيه رَضِيَ وصبر".[88]

"حد العقل ينطوي فيه فعل الطاعات والفضائل، واجتناب المعاصي والرذائل، وقد نص الله تعالى في كتابه على أن من عصاه لا يعقل؛ "وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ" (الملك 11). وحد الحمق: استعمال المعاصي والرذائل، وهو ضد العقل، ولا واسطة بين الحمق والعقل إلا السخف".[89]

يستنتج من الآيات القرآنية الكريمة، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقوال العلماء، أن للعقل في شريعة الإسلام أهميه كبيرة ومنزلة عظيمة، لأنه مناط التكليف والمسؤولية، وبه حصل تكريم الإنسان الذي نال وظيفة الاستخلاف في الأرض. قال المفسر محمود الزمخشري

---

[87]- المرجع نفسه، ص15.

[88]- المرجع نفسه، ص16.

[89]- "الأخلاق والسير في مداواة النفوس"، ابن حزم؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت 456)، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط2، 1399هج-1979م، ص 58.

وَجَلَّ خَيْرًا مِنَ الْعَقْلِ."[80] وقال عُرْوَة: "أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ الْعِبَادُ فِي الدُّنْيَا الْعَقْلُ وَأَفْضَلُ مَا أُعْطُوا فِي الْآخِرَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ"[81]

وقال الحسن: مَا يَتِمُّ دِينُ الرَّجُلِ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ"[82].وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: "مَا عُبِدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ."[83].وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: "لَا تَنْظُرُوا إِلَى عَقْلِ الرَّجُلِ فِي كَلَامِهِ وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى عَقْلِهِ فِي مَخَارِجِ أُمُورِهِ[84].وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: "لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ الَّذِي يَعْرِفُ الْخَيْرَ فَيَتَّبِعُهُ، وَيَعْرِفُ الشَّرَّ فَيَتَجَنَّبُهُ."[85]

"وقيل لابن المبارك: ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟، قال: موت عاجل".[86]

"وقال أبو حاتم: العقل دواء القلوب، ومَطِية المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن في الدنيا، وعُدَّته في وقوع النوائب، ومن عدم العقل

---

[80]- المرجع نفسه، ص 32.

[81]- المرجع نفسه، ص 33.

[82]- المرجع نفسه، ص 34.

[83]- المرجع نفسه، ص 35.

[84]- المرجع نفسه، ص 42.

[85]- المرجع نفسه، ص 51.

[86]- "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء"، للإمام أبي حاتم: محمد بن حِبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت354)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد ، الكتب العلمية – بيروت، د.ت.، ص 17

القضايا والنوازل المستجدة، وذلك وفق ضوابط وشروط وضعها العلماء والفقهاء المختصون.

ولعظم أهميه العقل أيضا، اعتباره من طرف العلماء أحد الضروريات الخمس. ذلك أن مقاصد الدين على ثلاث مراتب: ضرورية، أو حاجيه، أو تحسينية. ثم إن المقاصد الضرورية هي أصل المقاصد الحاجية والتحسينية، بحيث أن أي اختلال يعتري الأمر الضروري ينتج عنه اختلال في الأمر الحاجي والتحسيني. وقد ذهب الإمام الفقيه أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي، إلى أن هناك تكاملا في العلاقه بين المقاصد الثلاثة؛ حيث أن الحاجيات والتحسينات تكمل الضروريات، وأن هذه الأخيره تعتبر المقاصد والغايات الأساسية لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة. والضروريات الخمس هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

دعوة القرآن إلى استعمال العقل في مختلف الميادين،

منها:

1- ميدان الآفاق الكونية

قال الحق سبحانه وتعالى: "سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ" (فصلت 52). "ثم بين سبحانه أن حكمته قد اقتضت أن يطلع الناس فى كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلغه عنه ، فقال : "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق". والمراد بالآيات فى

رحمه الله: "كرمه الله تعالى بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد."[90]

" ...التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه، وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد؛ بعثت الرسل، وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين. اذا فتحت رأت الشمس، وأدركت تفاصيل الأشياء."[91]

ولقد حث ديننا الحنيف على استعمال العقل استعمالا يتعاضد ويتكامل مع نصوص الوحي. ومعلوم أن العقل الصريح لا يتناقض مع النقل الصحيح، ولذلك أمر الشرع المسلم بالاعتماد على البراهين والحجج القويه في الاستدلال، كما أمره بنبذ الجهل، والابتعاد عن الكبر، والتعصب والتقليد الأعمى، واجتناب المسكرات والمخدرات، وغيرها من الآفات والأشياء التي تطمس نور العقل وبصيرته. قال الحق سبحانه وتعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ" (البقره 169).

كما دعا الاسلام من خلال الوحي القرآني والسنة النبوية، إلى تزكيه العقول بالإقبال على التعلم وطَرْق أبواب العلم والمعرفة، وإعمال العقل في نصوص الشرع قصد استنباط الأحكام الشرعية، والاجتهاد في فهم

[90]- "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، الزمخشري: محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت 538)، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، ط3، 1407هج-1987م، ج2، ص 580.

[91]- "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي... ج10/ 294.

يصلي فلم يزل يبكي حتى بل لحيته ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: أفلا أكون عبدا شكورا. لقد نزلت علي الليله آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: إن في خلق السماوات والأرض" (ال عمران 190.)[93]

"يخبر تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب"، وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله: آيات ولم يقل: "على المطلب الفلاني" إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.وخص الله

[93] - صحيح ابن حبان، ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1، 1433هج-2012م، ج7، ص 722.

قوله : آيَاتِنَا : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته سبحانه، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم. والآفاق : جمع أفق كأعناق جمع عنق وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق كضرب يضرب؛ إذا سار فى آفاق الأرض وجهاتها المتعددة.

والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطارا لسموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار. سنطلعهم على مظاهر قدرتنا فى هذه الأشياء الخارجية التى يرونها بأعينهم ، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا فى أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل، وروح ، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة. ولقد صدق الله تعالى وعده ، ففى كل يوم بل فى كل ساعة، يطلع الناس على أسرار جديدة فى هذا الكون الهائل ، وفى أنفسهم . وكلها تدل على وحدانيته تعالى وقدرته، وعلى صحة دين الإسلام الذى جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام".[92]

ولقد دعت شريعتنا الغراء العقل إلى التفكر، والتأمل، سواء في نصوص الوحي، أو في الكون وما خلق الله من المخلوقات الدالة على عظمته، ووحدانيته، وألوهيته، وربوبيته. سئلت عائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسكتت ثم قالت: " لما كان من الليالي، قال: يا عائشه ذريني أتعبد الليلة لربي"، قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت فقام فتطهر، ثم قام

[92]- "التفسير الوسيط للقرآن الكريم"، محمد سيد طنطاوي...، ج 12، ص 366.

مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (غافر 67).

يقول المفسر سيد قطب رحمه الله تعالى: "وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين.

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني؛ في أسرار هذا الجسد، عجيبة في تكوينه الروحي؛ في أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه:

وتزعم أنك جِرم صغير ----- وفيك انطوى العالم الأكبرُ

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه الْتقَى بأسرار تدهش وتحير: تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة؛ إدراكه للمدرَكات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكُّرها؛ هذه المعلومات والصور المختزَنة، أين؟ وكيف؟

هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تُستدعى فتجيء؟!

بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم"[94].

إن التفكر في الكون وفي مخلوقات الله عز وجل، ليس من اختصاص العلماء وحدهم، بل يعم جميع المؤمنين الذين يتلون آيات الليل، ويتدبرونها مع استصحاب الخشية والخشوع. ومما لا شك فيه أن الإكثار من التفكر في آيات الله الكونية العظيمة، وفي مخلوقاته المختلفة، يجعل القلب يزداد إيمانا ويقينا، وتغدو الآخرة أقرب إلى المؤمن من حبل وريده، حتى لكأنه يراها رأي العين. فيقوى لديه الإقبال على الأعمال الصالحة، والتزود ليوم الرحيل. ولسوف تتمزق قلوبٌ حسرة وندامة، بسبب غفلتها، وهجرها للقرآن، وإعراضها عن التفكر في آياته. قال تعالى: "وَاتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَكُمُ اُلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتِيٰ عَلَيٰ مَا فَرَّطْتُ فِے جَنۢبِ اِ۬للَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ اَ۬لسَّٰخِرِينَ" (52-53 الزمر).

2- ميدان النفس

يعتبر ميدان النفس البشرية من الميادين التي حث الشارع على التفكر فيها، واستنباط الأدلة العقلية والنقلية على قدرة الله وتفرده بالخلق والإحياء والتدبير؛ قال عز وجل: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِے أَنفُسِهِمۖ مَّا خَلَقَ اَ۬للَّهُ اُ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّيٗۖ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ اَ۬لنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَۖ" (الروم 7). وقال سبحانه: "هُوَ اَ۬لذِے خَلَقَكُم

[94] - "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، السعدي...، ص 160.

وقال الله عز وجل: "وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنَ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝" (الروم 19-22).

إن النفس الإنسانية، سواء بالمعنى الجسدي أو بالمعنى الروحي، دليل باهرعلى عظمة خالقها، وبارئها، ومصورها. وإذا كان الغربيون الماديون المعاصرون، ومن قبلهم من الملاحدة والدهريين على مر العصور، قد أنكروا وجود النفس بالمفهوم الروحي، واقتصروا على الإيمان بالمحسوس من النفس بمعناها المادي الجسدي، فإن في الوحي القرآني، وفيما أوحاه الله لرسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم، من لطائف المعاني، والدلالات، والمفاهيم، والإشارات الجليلة والدقيقة المتعلقة بالنفس الروحية، ما يجعلنا أمام أعظم موسوعة علمية جامعة لكل ما يرتبط بالنفس من صفات، وأحوال، وأخلاق. كما يخبرنا الوحي القرآني أن هذه النفس خُلقت لتعبد الله وحده لا شريك له مصداقا لقوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝" (الذاريات 56)، وللإستخلاف في الأرض. فعلى المسلم القارئ للقرآن أن يتدبر الآيات التي ذكر الله فيها النفس، ويطلع على أحوالها وأوصافها، فإنها، كما جاء في القرآن، أمارة، ولوامة، ومطمئنة.

وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى. فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر. تظهر آثاره بين الحين والحين في لمساتٍ وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيَّب المجهول.

ثم أسرار هذا الجنس في توالُدِه وتوارُثِه؛ خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدقَّ تمثيل، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟!

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه، ويؤذَن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة، إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان، لا يقف له قلب ولا يتماسك له وجدان!

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات، بل أمام النطق ذاته؛ نطق هذا اللسان، وتصويت تلك الحنجرة؛ إنها عجيبة عجيبة تفقد وقْعَها لأنها تمرّ بنا كثيرًا، ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبر يجدد وَقْعها؛ إنها خارقة، خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله. وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق، لا ينقضي منها العجب".[95]

[95] - "في ظلال القرآن"، سيد قطب...، ج6، ص 3379-3380.

الحكيم: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ" (محمد 25). " يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام ، ويتفكَّرون في حُججه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)، يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر"97.

وقال العلي القدير: "لَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰباً فِيهِ ذِكْرُكُمْۥٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (الأنبياء 10). وهذه الآية من بين آيات كثيرة مختومة بقوله تعالى: "أفلا تعقلون"، وكلها تدعو إلى استعمال العقل، أي: الفهم والتدبر في آيات الذكر الحكيم، والتأمل في عظمته وأحكامه. وقال العزيز الحكيم: "قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (يونس 16) أي: أليس لديكم عقول تتدبرون بها، وتتفكرون في أن هذا الذي يتلى عليكم تنزيل من حكيم عليم، وأنه ليس في مقدور البشر الإتيان بمثله، أو بمثل سورة منه، أو بآية شبيهة بآياته الكريمة ؟.

[97] - "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"،الطبري؛ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310هج)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة - بدون طبعة، د.ت.، ج22، ص 179.

ثم إذا كان الإسلام قد فتح المجال للعقل للبحث، والتفكر في النفس والآفاق، فإنه قد وضع لهذا العقل حدودا وضوابط، كي لا ينحرف ويقع في الأخطاء، ولئلا يتيه في خيالات وفرضيات بعيدة عن المنطق، وعن طبيعة الواقع الإنساني والكوني. ومن هذه الضوابط والحدود: أن مجال العقل ينحصر في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فلا قدرة للعقل على معرفته إلا ما أخبرنا به الوحي الإلهي. ولا عجب إن ضل الفلاسفة على مر العصور، وهم يبحثون في أسرار النفس والكون، ولم يصلوا إلى أجوبة مقنعة وصحيحة.

3- ميدان التدبر في الآيات القرآنية

" التدبر :عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر؛ إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب."[96]

وانطلاقا من هذا النص المُبيّن، ندرك أن تدبر القرآن الكريم هو إعمال العقل، أي؛ القلب، في فهم معانيه، والغوص في أعماق بحاره الزاخرة بلآلىء العلوم والمعارف، واستنباط العبر والأحكام، والمقاصد الدينية والدنيوية، إلى غير ذلك من المعاني والمقاصد والغايات.

قال الحق سبحانه وتعالى: "كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ" (ص 28). وقال عز وجل: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفاً كَثِيراً" (النساء 81). وقال العليم

[96]- "التعريفات"، الجرجاني... ص 54.

إيجابا، مثل: سنة الابتلاء والتمحيص، وسنة الاستدراج. إلى غير ذلك من السنن الإلهية المهيمنة والمتحكمة في سير حياة الأمم والشعوب. ومن الآيات السننية قوله تعالى: "قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (آل عمران 137). وقوله عز وجل: "يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (النساء 26). وقول الحق سبحانه: "سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً" (الإسراء 77). وقول العزيز الحكيم "اِسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً" (فاطر 43-44). وقول السميع البصير: "فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ" (غافر 84). وقوله عز وجل: "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً" (الفتح 23).

من فوائد وثمرات العقل المنور بنور الوحي

1- الجمع بين العلم والعمل

جاء في المقدمه السابعة من كتاب الموافقات للإمام أبي اسحاق الشاطبي: أن " كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي ، وأعني بالعمل : عمل القلب وعمل الجوارح ، من حيث هو مطلوب شرعا ".

4- التدبر وإعمال العقل في حقيقة الحياة الدنيا

الدنيا دار امتحان وابتلاء، ودار فناء في مقابل الآخرة التي هي دار البقاء. كما أنها، بالنسبة للمؤمن بالله ورسوله، مزرعة للآخرة، ودار عمل واجتهاد ونصب. وفي القرآن الحكيم آيات كثيرة تشير إلى المقارنة بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، مع تفضيل الثانية على الأولى؛ قال الحق سبحانه: "وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (الأنعام 33).

إن الآيات القرآنية التي تصف حياة الدنيا باللهو، واللعب، والمتاع الزائل الفاني، والحياة الآخرة بالمتاع الدائم، والنعيم المقيم الأبدي، تدعو الإنسان العاقل إلى استعمال عقله في الموازنة والمقارنة بين الحياتين، واختيار الأنفع والأولى والأجدر بالحياة. فإن كان من السعداء الأتقياء، هداه الله ووفقه لاختيار الدار والحياة الآخرة، مع اتخاذ الدنيا مزرعة لها، بينما إذا كان من الأشقياء التعساء، المعرضين عن ذكر ربهم وطاعته، قادته نفسه الأمارة بالسوء المطيعة لأهوائها وللشيطان، إلى أودية الضلال والهلاك.

هذا وإن ميادين استعمال العقل، والفهم، والتدبر، والتفكر في كتاب الله العزيز كثيرة ومتنوعة، منها: ميدان سنن الله القائمة والثابتة والمطردة في حياة الأمم والمجتمعات، من حيث القوة والازدهار والرقي، أو الضعف والتخلف والاضمحلال، ومن حيث الأخذ بسنن الله سبحانه في عباده، أو إهمالها ونبذها، مثل: سنة السببية، وسنة النصر والتمكين، وسنة المدافعة، وسنة التغيير. وكذلك طريقة التفاعل مع سنن أخرى، سلبا أو

والإخلاص، ولأنهم يقولون ما لا يفعلون. ولهذا ورد ذكرهم في الحديث النبوي المتعلق بالثلاثة الأوائل الذين تسعر بهم النار يوم القيامة.

"عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ:

أَيُّهَا الشَّيْخُ! حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ .قَالَ :نَعَمْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ) إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا .قَالَ :فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ :قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ. فَأُتِيَ بِهِ. فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا .قَالَ :فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ :تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ .قَالَ :كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ. فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا .قَالَ :فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ :مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ .قَالَ :كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ. ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النار"[99]

و"عُلَمَاء السوء جَلَسُوا على بَاب الْجنَّة يدعونَ إِلَيْهَا النَّاس بأقوالهم ويدعونهم إِلَى النَّار بأفعالهم فكلما قَالَت أَقْوَالهم للنَّاس هلمّوا قَالَت

---

[99] - صحيح مسلم، مسلم:...، ج3، ص 513.

فروح العلم تتجلى في العمل به. والعلم، عقلا ونقلا، وسيلة من الوسائل وليس مقصودا لذاته، إنما هو وسيلة للعمل. ولذا فإن الإنسان العاقل هو الذي يعمل بما يعلم قبل أن ينصح غيره، أو يتصدر لتعليم الناس وتربيتهم.

قال الحق سبحانه وتعالى: "أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (البقره 43). وقال عز وجل: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ" (الصف 2-3.).أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوثون ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أليس من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس مبادرة إليه، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس عنه"[98].

ومما لا شك فيه أن القطيعه بين العلم والعمل من المصائب التي ابتلي بها المسلمون عبر العصور، ولا سيما في عصرنا هذا، حيث أصبحت الغاية من وراء تحصيل العلم، هي الظفر بدنيا حقيرة من مال، أو جاه، أو منصب، أو شهادة علمية !؟ ، كما أن الأخلاق السيئة التي يتصف بها علماء الدنيا، مثل: الكبر، والعجب، والغرور، والرياء، والحسد، والنفاق، تجعل الناس ينفرون منهم، ولا يستمعون الى كلامهم لخلوه من الصدق

[98]- تفسير الكريم المنان، السعدي،...، ص 1020.

وسلم، نهانا وحذرنا من تقليد أهل الكتاب، من اليهود والنصارى؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ الصَّنْعَانِيُّ مِنَ الْيَمَنِ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ .قُلْنَا :يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ :فَمَنْ."[101]

ولقد استفحل في زماننا هذا أمر إعجاب كثير من المسلمين بالمشركين الغربيين، وانبهارهم بثقافتهم المادية العلمانية، حيث عمل المسؤولون في البلدان الإسلامية على استيراد المناهج التربوية الغربية، والعمل بمقتضاها، مما أدى إلى إفساد التعليم، وإفراغه من هويته العربية والإسلامية. ناهيك عما أصاب الأسرة المسلمة من تصدع وتفكك، بسبب تبني كثير من القوانين والمبادئ الوضعية المتعلقة بالأسرة الغربية. إلى غير ذلك من مظاهر التقليد والإعجاب بالغربيين العلمانيين، تلك المظاهر التي شملت سائر جوانب الحياة؛ الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية.

3- الابتعاد عن سبل الشيطان

إن الله سبحانه وتعالى ابتلى عباده بأمور كثيرة، من بينها؛ وسوسة الشيطان وإغواؤه، وكيده وسعيه لهلاك الناس، وإبعادهم عن الفطرة والحنفية السمحاء. قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا

---

[101] - "صحيح البخاري"، ... ج9، ص 103.

أفعالهم لَا تسمعوا مِنْهُم فَلَو كَانَ مَا دعوا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أول المستجيبين لَهُ فهم فِي الصُّورَة أدلاء وَفِي الْحَقِيقَة قطّاع الطّرق "[100]

2- نبذ التقليد المذموم

إن النظر والتأمل في الآيات القرآنية المتعلقة بموقف الأقوام والأمم السابقة من دعوة الأنبياء والرسل، يشير إلى أن رفض هؤلاء الأقوام لدعوتهم، يرجع إلى أسباب كثيرة، لعل من أهمها: التقليد الأعمى والتعصب لدين الآباء والأجداد، ولهذا قال الحق سبحانه: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَيٰ مَآ أَنزَلَ أَللَّهُ وَإِلَي أَلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ". (المائده 106) كما أخبر الله عز وجل عن قوم موسى عليه السلام، حين دعاهم إلى نبذ الشرك، وإلى عبادة الله وتوحيده، حيث كان جوابهم: "أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا أَلْكِبْرِيَآءُ فِے أِلَارْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُومِنِينَ" (يونس 78)، فجعلوا معتقدات وأفعال آبائهم المشركين حجة يجادلون بها الحق.

ومن صور التقليد المذموم: صورة الإنسان الذي يقلد غيره في الاعتقاد ولو كان باطلا. وكذلك الإنسان المقلد غيره في الأخلاق ولو كانت سيئة. قال الحق سبحانه وتعالى: "وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلِ اِنَّ أَللَّهَ لَا يَامُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَي أَللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (الاعراف 27). كذلك الانسان المسلم المتشبه بالكفار والمشركين، في عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة عيشهم، مع أن النبي صلى الله عليه

---

[100] - الفوائد، ابن القيم:...، ص 61.

مَنْ يَشَاء": من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: "وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[102]

إن المسلم الغافل كثيرا ما يستدرجه الشيطان عن طريق الإغواء، فيوقعه في حبائله، ثم يحكم قبضته عليه، بعد أن يشرع الغافل في اتباع خطواته خطوة خطوة، وهو لا يشعر، فيزين له التوسع في المباحات مما قد يفضي به إلى فعل المحرمات. وقد يوحي إليه بأن فعل الذنوب الصغيرة لا يضر مع الاستغفار، فيُكثِر منها إلى أن يقسو قلبه، فيلج باب المحرمات، وقد يقدم على فعل الكبائر والموبقات والعياذ بالله. وهذا مآل من اتبع خطوات الشيطان. فعلى المسلم ألا يحتقر ذنبا مهما صغر، وليتذكر أن معظم النار من مستصغر الشرر، وأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، وأن الصغائر بريد الكبائر.

وقال الحق سبحانه وتعالى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنُ اُعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدَ اَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً اَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ" (يس 59 -61). دلت هذه الآيات على أن المشركين لا عقل لهم حينما اتبعوا الشيطان، وأطاعوه فيما يأمرهم به. بينما المسلم العاقل الذي يأتمر بأوامر الله ويجتنب نواهيه، يكون عاصيا للشيطان ومجتنبا سبيله وطريقه. وهكذا فإن استعمال العقل المنور بنور الوحي، يجعل المسلم في مأمن من نزغات الشيطان ووساوسه، ويحفظه ربه سبحانه، من الوقوع في أحابيله ومصائده.

---

[102] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي،... ص 657.

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (النور 21):

"وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن. ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال : "وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ؛ أي: الشيطان "يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ "؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه . "وَالْمُنْكَر": وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهي الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا؛ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستولٍ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلي وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتزكى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم " :اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها " ولهذا قال: " وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: " وأما الفلاسفة فإسم العقل عندهم مشترك يدل على ثمانية معاني مختلفة :العقل الذي يريده المتكلمون، والعقل النظري، والعقل العملي، والعقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، والعقل الفعال. فأما الأول فهو الذي ذكره أرسطاليس في كتاب البرهان وفرق بينه وبين العلم، ومعنى هذا العقل هو التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة، والعلم ما يحصل للنفس بالإكتساب، ففرقوا بين المكتب والفطري فيسمى أحدهما عقلا والآخر علما، وهو اصطلاح محض .وهذا المعنى هو الذي حد المتكلمون العقل به إذ قال القاضي أبو بكر الباقلاني في حد العقل :إنه علم ضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم باستحالة كون الشيء الواحد قديما وحديثا، واستحالة المستحيلات كالعلم باستحالة كون الشيء الواحد قديما وحديثا، واستحال كون الشخص الواحد في مكانين. وأما سائر العقول فذكرها الفلاسفة في كتاب النفس.".[103]

إن وصف العقل بالهيولاني، أو بالملكة، أو بالمستفاد، أو بالفعل، كان أمرا مألوفا ومتداولا لدى فلاسفة اليونان، ومن قلدهم من متفلسفة المسلمين والمسيحيين. وفي العصور الحديثة والمعاصرة، اختفت هذه المفاهيم والمصطلحات من الاستعمال والكلام الفلسفي. لكن جوهرية العقل ظلت قائمة. وهو مذهب كل من اشتغل بموضوع العقل من

---

[103] - "معيار العلم في فن المنطق"، الغزالي؛ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505)، المحقق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1961، ص 287.

هذا وإن العقل السليم المهتدي بهدي القرآن، لا تعد فوائده وثمراته ولا تحصى. كما أنه يسلك بصاحبه سبيل الهدايه ويبعده عن الغوايه، ويدله على فوائد وثمرات الأحكام الشرعية، ويطلعه على مقاصدها وغاياتها.

فساد تصور المتفلسفة للعقل

الجوهر والعرض من المفاهيم والمصطلحات الفلسفية التي وظفها متفلسفة المسلمين أمثال: الكندي والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، في تحليلاتهم الفلسفية لموضوعات الوجود الإنساني والكوني. وهذه المفاهيم ترجع إلى أصول يونانية، حيث أن الاشتغال بالفلسفة عند المسلمين، حدث مباشرة بعد تأسيس بيت الحكمة في بغداد، بأمر من الخليفة العباسي المأمون، الذي أعجب بالفلسفه اليونانية، وعمل على جلب كتبها وحثَّ على ترجمتها الى العربية.

والمقصود بالجوهر؛ هو الماهية التي توجد في الخارج لا في موضوع؛ كالكتاب يوجد في الخارج مستقلا أي قائما بنفسه، ووجوده غير وجود الحرارة للماء، أو البياض للورقة، فإنهما موجودان بغيرهما، بينما الكتاب موجود بنفسه.

أما العرض فهو الموجود في موضوع. لكن الموضوع مستغن عنه كالحرارة الموجودة في الماء، والبياض الموجود في الورقة.

ولقد ذهب متفلسفة المسلمين، أمثال الفاررابي وابن سينا وغيرهما، إلى أن العقل جوهر قائم بنفسه.

وقال إيميل دوركايم بالعقل الجمعي، ثم قال ليفي ستراوس بالعقل البنيوي، وقال جاك ديريدا بالعقل التفكيكي، وقال آخرون بالعقل الأداتي والعقل الافتراضي. وكل واحد منهم يدعي وصلا بليلى، وليلى لا تقر لهم بذاك.

وبين الذكاء والعقل خصوص وعموم؛ فليس كل ذكي عاقلا، بينما كل عاقل ذكي. كما أن الذكاء مشترك بين كثير من الحيوانات والإنسان. بيد أن العقل يختص ويتميز به الإنسان المسلم الصالح. فلا ينبغي الخلط بين العقل والذكاء. إن الغربيين المعاصرين أذكياء لأنهم اخترعوا، وأبدعوا، وصنعوا الحضارة المادية، لكنهم ليسوا عقلاء لكونهم كفروا بالله، وظلموا وفسدوا في الأرض وأفسدوا، وحاربوا الإسلام والمسلمين. والفطرة، والقيم الإنسانية. فليس لهم من العقل بالمعنى الصحيح، مثقال ذرة؛ قال الحق سبحانه: "وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ" (الملك 11). بل لا إرادة حقيقية لهم لكونهم مسوقين من قبل الشياطين. قال الله عز وجل: "أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا " (مريم 84).

ولأبي الحسن علي الماوردي رحمه الله، كلام دقيق في موضوع العقل حيث ينتقد كون العقل جوهرا قائما بنفسه، يقول رحمه الله: "وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ. وَمَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا فِي مَحَلِّهِ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الدِّمَاغُ؛ لِأَنَّ الدِّمَاغَ مَحَلُّ الْحِسِّ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَعْدِنُ الْحَيَاةِ وَمَادَّةُ الْحَوَاسِّ. وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الفلاسفة، وعلماء النفس، والأطباء في الغرب المسيحي، وشاع بين الناس، شرق وغربا، أن العقل جوهر قائم بذاته.

وبينما كنت اقرأ متدبرا سورة الملك، استوقفني قوله تعالى: "وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ". (الملك 11). فقلت سبحان الله: الكافر يعترف في الآخرة بعدم امتلاكه، في دنياه، للعقل. ثم بدأت أنظر وأبحث في الآيات المتعلقة بهذا المعنى، فوجدتها كثيرة: منها قوله سبحانه: "تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ" (الحشر 14)، وقوله عز وجل: "أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالَانْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً" (الفرقان 44).

إن هذه الآيات ونظائرها تؤكد بأن الله سبحانه، قد عرى الكافر من العقل، أي: جرده منه، إذ لو كان عاقلا لآمن واتبع الهدى. وهذا مقياس حقيقة وجوهر العقل، أي: التعقل بالمعنى القرآني. أما مقياسه فيما سوى الوحي، فهو الضلال المبين. فهل يعتبر أفلاطون، وسقراط، وأرسطو، وديكارت، وهيجل، ولينين، وستالين، وغيرهم من أهل الكفر والضلال، عقلاء؟

والغريب أن الفلاسفة بدءا من فيتاغورس ومرورا بأفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وكانط وهيدجر، وكل فلاسفه العقل في العصر الحديث، كانوا ولا يزالون يخبطون خبط عشواء: حيث أنكروا وجود الإله، بل أعلن بعضهم موته، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، مثل ما صرح به الفيلسوف فريديريك نيتشة. ثم قالوا بموت الإنسان على لسان الفيلسوف ميشيل فوكو، وغيره من الفلاسفة الماديين.

بذلك كثير من فلاسفتها. إن العاقل الحقيقي هو المؤمن الصالح الذي يأتمر بأوامر الله ويجتنب نواهيه، ويسعى في خير ومصلحة العباد.

والحقيقه أن العقل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين: إما أن يقصد به القلب أي الروح، في مثل قوله تعالى: "لآيات لأولي الألباب"، أي؛ العقول بمعنى القلوب، وكما جاء في "لسان العرب" لابن منظور: "والعقل القلب والقلب العقل"، أو يطلق، أي؛ العقل على معنى التعقل والفهم والإدراك، كما يدل على ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ" (الحج 44)، مما يفيد أن العقل مصدر عقل يعقل عقلا، وليس إسما لمسمى قائم بذاته.

وعندما كان الصحابة رضوان الله عليهم يلجؤون إلى القياس أو الرأي، ويحكمون العقل ولغة العرب قصد الفهم والاستنباط، فإن تحكيمهم العقلَ يعني؛ قيامهم بعملية التعقل والفهم؛ فقد ورد في كتاب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى أبي موسي الأشعري ما نصه: "ولا يمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم عرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق."[105]

---

[105]- "الكامل في اللغة والأدب"، المبرد؛ محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت 285)،المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ط3، 1417هج-1997، ج1، ص 15.

أَحَدِهِمَا إنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا. وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَاسْتَغْنَى الْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ.

وَالثَّانِي أَنَّ الْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ.

فَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ فَامْتَنَعَ بِهَذَيْنِ أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا. وَقَالَ آخَرُونَ: الْعَقْلُ هُوَ الْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنْ الصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ الْإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْحَيِّ، وَالْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ الْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ وَهَذَا الْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْإِجْمَالِ، وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ الِاحْتِمَالِ. وَالْحَدُّ إنَّمَا هُوَ بَيَانُ الْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ الْإِجْمَالَ وَالِاحْتِمَالَ. وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ: إنَّ الْعَقْلَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ"[104].

لقد سود الفلاسفة، والمناطقة، والملاحدة، والحداثيون العلمانيون، آلاف الصفحات متحدثين عن العقل، لكنهم لم يفقهوه، ولم يحيطوا بمعناه وجوهره، بل لم يتفقوا على تعريف واحد له؛ واللاحق منهم ينتقد السابق ويسفه عقله. فالمدرسة العقلانية كان لها صولات وجولات في الثقافة الغربية، ثم اضمحلت وكسفت باغتراب العقل، أو موته كما صرح

[104] - "أدب الدنيا والدين"، الماوردي...، ص 18-19.

الفصل الرابع

القلب في القرآن

فقول الخليفة عمر رضي الله عنه: "فراجعت فيه عقلك"، أي: فهمك وتعقلك. كما أن فقهاء كُثُر كانوا يعتمدون على الرأي في الاجتهاد وإصدار الأحكام، وعلى رأسهم أبو حنيفة رضي الله عنه، صاحب مذهب أهل الرأي. وقعد أصحاب مدرسة الإمام مالك رضي الله عنه لقاعدة المصالح المرسلة المؤسسة على اعتبار المعنى المعقول الموافق للمصلحة، ولروح الدين ومقاصده، وبناء الأحكام عليه. وعندما يرى الفقهاء أن العقل صالح لإدراك ما يأتي به الشرع من الحسن والقبيح، فإنهم يقصدون بالعقل الفهم والتعقل، إذ أنهم أعلم الناس بأن القلب، بمعناه الروحي، هو الذي يعقل ويدرك ويأمر وينهى.

وهكذا فإن إطلاق العقل على عملية التعقل، والفهم، هو القول الصائب، إذ يستحيل تصور وجود جوهرين قائمين في كيان الإنسان، أي: العقل باعتباره جوهرا قائما بنفسه من جهة، واعتبار القلب، أي: الروح كذلك جوهرا قائما بنفسه من جهة أخرى، وكلاهما محل التكليف!!؟ وسيتضح هذا الأمر بحول الله، في موضوع: "القلب في القرآن".

القلب في القرآن

القلب لغة واصطلاحا:

"قلب :القَلْبُ: تَحْوِيلُ الشيءِ عَنْ وَجْهِهِ. قَلَبه يَقْلِبُه قَلْباً، وأَقْلَبه، الأَخيرةُ عَنِ اللِّحْيَانِيِّ، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ. وَقَدِ انْقَلَب، وقَلَبَ الشيءَ، وقَلَّبه :حَوَّله ظَهْراً لبَطْنٍ. وتَقَلَّبَ الشيءُ ظَهْرًا لبَطْنٍ، كالحَيَّةِ تَتَقَلَّبُ عَلَى الرَّمْضاءِ. وقَلَبْتُ الشيءَ فانْقَلَبَ أَي انْكَبَّ، وقَلَّبْتُه بِيَدِي تَقْلِيباً، وَكَلَامٌ مَقْلوبٌ، وَقَدْ قَلَبْتُه فانْقَلَب، وقَلَّبْتُه فتَقَلَّب .والقَلْبُ أَيضاً :صَرْفُكَ إِنْساناً، تَقْلِبُه عَنْ وَجْهِه الَّذِي يُريده .وقَلَّبَ الأُمورَ :بَحَثَها، ونَظَر فِي عَواقِبها .وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ :وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ؛ وكُلُّه مَثَلٌ بِمَا تَقَدَّم .وتَقَلَّبَ فِي الأُمور وَفِي الْبِلَادِ :تَصَرَّف فِيهَا كَيْفَ شاءَ .وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ :فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ، مَعْنَاهُ :فَلَا يَغْرُرْكَ سَلامَتُهم فِي تَصَرُّفِهم فِيهَا، فإِنَّ عَاقِبَةَ أَمْرهم الهلاكُ .وَرَجُلٌ قُلَّبٌ :يَتَقَلَّبُ كَيْفَ شاءَ. وتَقَلَّبَ ظَهْرًا لبطنٍ، وجَنْباً لجَنْبٍ :تَحوَّل .وقولُهم :هُوَ حُوَّلٌ قُلَّبٌ أَي مُحتالٌ، بَصِيرٌ بتَقْليبِ الأُمور . والقُلَّبُ الحُوَّلُ :الَّذِي يُقَلِّبُ الأُمورَ، ويحْتال لَهَا"[106]

واصطلاحا؛ قال الجرجاني: "القلب لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني، الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، تعلق. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسمها الحكيم النفس الناطقة".[107]

---

[106] - "لسان العرب"، ابن منظور...ج7، ص 585

[107] - "التعريفات"، الجرجاني...ص 178.

وقال اللطيف الخبير: "أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اِللَّهِ "(الحديد 14).

وقال الحليم الشكور: "اَلذِينَ إِذَا ذُكِرَ اَللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" (الأنفال 2).

وقال البر الرحيم : "هُوَ اَلذِے أَنزَلَ اَلسَّكِينَةَ فِے قُلُوبِ اِلْمُومِنِينَ" (الفتح 4).

وقال الملك الحق: "وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِے رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ" (التوبة 45).

وقال العزيز الحكيم: "وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اَللَّهِ عَلَيْكُمُۥٓ إِذْ كُنتُمُۥٓ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ" (آل عمران 103).

وقال سبحانه: "ثُمَّ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً" (البقرة 73).

وقال عز وجل: "لَّا يُؤَاخِذُكُمُ أَللَّهُ بِاللَّغْوِ فِے أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ" (البقرة 223).

وقال الله عز وجل: " وَمَنْ يُّومِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ" (التغابن 11).

وقال الله عز وجل: " مَّنْ خَشِيَ اَلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ" (ق 33).

وقال الله عز وجل: "أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اِللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ" (الحديد 15).

وقال السميع البصير: "فِے قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ أَللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ" (البقرة 9).

القلب في القرآن

ذكر لفظ القلب في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة، منها قوله تعالى:" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق 37).

وقال الحق سبحانه وتعالى:"مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ" (الأحزاب 4).

وقال العليم الحكيم: "تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ" (الحشر 14).

وقال العزيز الحكيم: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ" (الحج 44)

وقال الملك الحق: "فَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" (الحج 44)

وقال الله عز وجل:"وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" (الأعراف 99).

وقال الغفور الرحيم: "ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ" (المائدة 43)

وقال الحليم الشكور: "وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ" (الحجرات 7).

وقال السميع البصير:"ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ" (الحج 30).

أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِياً لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[109].

وعَنْ أبي هريرة قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ."[110] "حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا«، فَقَالَ قَائِلٌ :وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ» :بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ«، فَقَالَ قَائِلٌ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ» :حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[111].

و"حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ، قَالَ :ثنا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ :ثنا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ :أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَيْسَرَةَ الْحَضْرَمِيُّ، عَنْ أَبِي هَانِئٍ الْخَوْلَانِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي

---

[109] - "صحيح مسلم"، مسلم...، ج1، ص 128.

[110] - المصدر نفسه، ج4، ص 987.

[111] - "سنن أبي داود"، أبو داود...، ج4، ص 111.

وقال الحي الذي لا يموت : "وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا" (الكهف 28).

وقال سبحانه وتعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ" (محمد 25).

وقال الملك الحق المبين: "ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ" (الرعد 29)، إلى غيرها من الآيات البينات التي ذكر فيها القلب بكل أنواعه وصفاته وأحواله.

أحاديث نبوية في القلب

جاء ذكر القلب في أحاديث نبوية كثيرة، منها ما يلي:

"عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : "الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مضغة إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ".[108]

وعن حُذَيْفَةُ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ

[108] - "صحيح البخاري"، البخاري،... ج1، ص 20

المتضمن للعبادة وللعبودية؛ قال العزيز الحكيم: "وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات 56). ثم إن الناظر والمتأمل في الآيات التي ذكر فيها القلب، يجد أن القرآن الكريم قد سما بلغته في الوصف الدقيق لأنواع القلوب وصفاتها وأحوالها ، حيث عرض لوصف قلوب المؤمنين، وقلوب المنافقين، وقلوب الكافرين، وقلوب الغافلين.

"والقلوب ثلاثة: القلب الأول خال من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلبٌ مظلم قد استراح الشيطانُ مِن إلْقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتَّخذ بيتًا ووطنًا وتحكَّم فيه بما يُريد، وتمكَّن منه غايةَ التمكُّن.

القلب الثاني :قلب قدِ استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظُلمة الشهوات وعواصِف الأهوية، فللشيطان هنالك إقبالٌ وإدبار، ومجالاتٌ ومطامع، فالحرْب دُول وسِجال. وتختلف أحوالُ هذا الصِّنف بالقلَّة والكثرة، فمِنهم مَن أوقات غلبته لعدوِّه أكثر، ومِنهم مَن أوقات غلبَة عدوِّه له أكثر.ومنهم مَن هو تارَةً وتارة.

القلب الثالث :قلب محشو بالإيمان قدِ استنار بنور الإيمان، وانقشعتْ عنه حجب الشهوات، وأقلعتْ عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدرِه إشراق؛ ولذلك الإشراق إيقاد لو دنَا منه الوسواس احترَق به، فهو كالسَّماء التي حُرِستْ بالنجوم، فلو دنا منها الشيطانُ يتخطَّاها رُجِم فاحترق"[114]

---

[114]- " الوابل الصيب من الكلم الطيب"، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط3، 1999، ص 24.

جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَيَتْلُو، فَاتْلُوا الْقُرْآنَ يُجَدِّدُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ."[112]

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب، قالا :حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ. هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً. الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ. رَأْسُ الْكُفْرِ قبل المشرق."[113]

صفات القلب في القرآن

موضوع القلب من الموضوعات المحورية في القرآن، وذلك لأن القلب هو المخاطب من قبل الله سبحانه في الوحي القرآني، وهو النفس المكلفة بوظيفة الاستخلاف في الأرض، والمأمورة بعبادة الله وطاعته. ثم إن القلب مرتبط، بكل الموضوعات المبسوطة، والمفصلة في القرآن الكريم. وهذا من بين الدلائل الواضحة على مركزيته، في الخطاب القرآني. كما أن القلب محل الابتلاء وموطن الاختبار، وما خلق الله الإنسان إلا لذلك؛ قال الحق سبحانه وتعالى: "تَبَٰرَكَ ٱلَّذِے بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَےْءٖ قَدِيرٌ ٱلَّذِے خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمُۥٓ أَيُّكُمُۥٓ أَحْسَنُ عَمَلاٗ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ" (الملك 1-2)، وغيرها من الآيات الدالة على أن الغاية من خلق الإنسان هو الابتلاء

[112]- المعجم الكبير، الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، ج13، ص 36.

[113]-"صحيح مسلم"، مسلم...، ج1، ص 73.

(المؤمنون 64). ومن صفاته أنه قلب زائغ؛ قال العليم الحكيم: "فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ" (الصف 5). ومن صفاته أنه قلب مرتاب؛ قال السميع البصير: "وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ" (التوبة 45)، إلى غير ذلك من الصفات والنعوت الذميمة التي يمُجُّها العقل، ويأباها الشرع.

وأما القلب الذي استنار بنور الإيمان مع ميله إلى الشهوات وركونه إلى الأهواء، فمن صفات صاحبه أنه ظالم لنفسه؛ قال الله عز وجل: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ" (فاطر 32).

ومن صفات قلب المؤمن الذي استنار بنور الإيمان، وانقشعتْ عنه حجب الشهوات، وأقلعتْ عنه تلك الظلمات؛ أنه قلب سليم؛ قال الحق سبحانه وتعالى: "إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" (الشعراء 89). ومن صفاته أنه قلب مطمئن؛ قال العلي القدير: "ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ" (الرعد 29). ومن صفاته كذلك أنه قلب منيب؛ قال الله سبحانه وتعالى: "مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ" (ق 33). ومن صفاته أيضا أنه قلب خاشع؛ قال الحليم الشكور: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ" (الحديد 15). ومن صفاته أيضا، أنه قلب وجل: أي؛ يخاف الله ألا يقبل منه العمل، وألا ينجى من عذاب ربه؛ قال

فمن صفات القلب الخالي من الإيمان أنه لا يعقل؛ قال العليم الخبير: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج 44). ومن صفاته أنه قلب لا يفقه؛ قال الحق سبحانه: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف 179). ومن صفاته أنه قلب مختوم عليه؛ قال العزيز الحكيم: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (البقرة 6). ومن صفاته أنه قلب مطبوع عليه؛ قال العزيز الحكيم: "تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ" (الأعراف 100). ومن صفاته كذلك، أنه قلب مقفل؛ قال السميع العليم: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد 25). ومن صفاته أيضا أنه قلب قاسٍ؛ قال العلي الكبير: "فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (الأنعام 44). وقال سبحانه: "أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الزمر 21). ومن صفاته أنه قلب مريض؛ قال الحق سبحانه وتعالى: "وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة 126). ومن صفاته أيضا أنه قلب أعمى؛ قال الحق سبحانه: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج 44). ومن صفاته أنه قلب مغمور؛ قال الله عز وجل: "بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا"

القلب يعقل

قال الملك الحق المبين: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ" (الحج 44). لقد أشار الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، بما لا يدع مجالا للشك، إلى مصدرية اللطيفة الروحانية القلبية للتعقل والفهم والإدراك. إن فعل التعقل لدى الإنسان، يقوم به فاعل واحد؛ إنه القلب، أي؛ الروح، أو بعبارة أخرى؛ هو الإنسان ذاته. وهذه الآية دامغة ومبطلة لكل الأفكار الفلسفية، والسفسطائية التي تزعم بالوجود الجوهري للعقل الإنساني، وأنه فاعل التعقل والتفكر.

ويقول المفسر القرطبي رحمه الله: "قوله تعالى: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور":قوله تعالى: أفلم يسيروا في الأرض يعني كفار مكة، فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم، فتكون لهم قلوب يعقلون بها؛ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن.

وقد قيل: إن العقل محله الدماغ ؛ وروي عن أبي حنيفة ؛ وما أراها عنه صحيحة، فإنها لا تعمى الأبصار قال الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ؛ أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة؛ لا تعمى الأبصار أي أبصار العيون ثابتة لهم. ولكن تعمى القلوب التي في الصدور أي عن درك الحق والاعتبار. وقال قتادة: البصر الناظر جعل بلغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب. وقال مجاهد : لكل عين أربع

الغفور الرحيم: "وَالذِينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنَّهُمُۥٓ إِلَيٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ " (المؤمنون 61). ومن صفاته أنه قلب مهتد؛ قال العلي الكبير: "وَمَنْ يُّومِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ" (التغابن 11). ومن صفاته أنه قلب مرحوم؛ قال الرحيم الودود: "يَٰٓأَيُّهَا اَلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي اِلصُّدُورِ وَهُديٗ وَرَحْمَةٞ لِّلْمُومِنِينَۖ" (يونس 57).

إلى غير ذلك من الصفات التي يتصف بها هذا القلب المنور بنور الله، مثل؛ التقوى، والإنابة، والسكينة، والإخبات، والخشية. جعلنا الله جميعا ممن اتصفوا بهذه الصفات الإيمانية الحميدة، التي تقرب العبد من مولاه، وتسلك به طريق الهداية والفوز بالجنة.

هذا وإن قلب المؤمن موضع الإيمان؛ قال تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ اُلِايمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَلَانْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۖ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اُللَّهِۖ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اَللَّهِ هُمُ اُلْمُفْلِحُونَۖ" (المجادلة 22)، كما أنه موضع نظر الحق إلى عبده؛ فعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[115]. وقلب المؤمن منزل السكينة من الله؛ قال الحق سبحانه وتعالى: " هُوَ اَلذِے أَنزَلَ اَلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ اِلْمُومِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰناٗ مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۖ" (الفتح 3).

[115] - "صحيح مسلم"، سبق تخريجه.

إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ" (يس 68-69) ، أي؛ حي القلب.

وقوله" :أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ "أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام .وقوله تعالى" وَهُوَ شَهِيدٌ "أي: شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة" :استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساه.. " وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو: سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر."[117]

يستفاد من كلام العلامة المدقق محمد بن قيم الجوزية رحمه الله، أن الانتفاع بالقرآن الكريم لا يحصل إلا إذا جمع القارئ قلبه، وألقى سمعه إلى من يخاطبه وهو الله جل جلال جلاله. فالقلب مركز الفهم والوعي، وهو الذي يعقل عن الله، ويجتهد في فهم كلامه العزيز. إن العقل، مصدر عقل يعقل، وظيفة خاصة بالقلب، أي؛ الروح. وإذا كان القلب مشغولا بالدنيا وشهواتها، فإنه يحال بينه وبين الخطاب الرباني، وتبطل لديه قوة التعقل؛ قال الحق سبحانه: "وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ" (الملك 11).

---

[117] - "الفوائد"، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1393هج-1973م، ص 3.

أعين ؛ يعني لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئا ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا .وقال قتادة ، وابن جبير : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى. قال ابن عباس ، ومقاتل : لما نزل ومن كان في هذه أعمى قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، فأنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار"[116].

شهود القلب

قال الملك الحق المبين: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق 37). "إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه وإليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله. وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتض، ومحلٍ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ "إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر، وقوله تعالى":لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ "فهذا هو المَحِل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: "إِنْ هُوَ

---

[116]- الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي...، ج12، ص 77.

ومن الآيات القرآنية الدالة على أن القلب هو القائم بالتفكير، وبجميع العمليات العقلية والوجدانية، قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج 44)، ولم يقل الله سبحانه وتعالى؛ فتكون لهم أدمغة أو عقول يعقلون بها ، كما أنه عز وجل لم يقل: ولكن تعمى العقول أو الأدمغة، وإنما أسند سبحانه، التعقل إلى القلب، ونفى عنه، لا عن العقل، العمى سبحانه. وقوله عز وجل "ثم قست قلوبكم من بعد ذلك"، وقول الغفور الرحيم: "أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ" (الجاثية 22)، وقول العزيز الحكيم: "وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ" (الأنفال 24)، وقوله سبحانه: "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" (الفتح 11)، وقول العليم الخبير: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ" (محمد 25)، وقول اللطيف الخبير: "أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" (الأعراف 99)، فلم يقل سبحانه؛ على عقولهم أو أدمغتهم. وهكذا فإن الله سبحانه قد وصف القلب، لا العقل، بالتعقل، والهداية، والعمى، والقساوة، إلى غيرها من الأوصاف والنعوت الواردة في كتاب الله عز وجل.

وهكذا نستنتج من خلال التأمل في مضمون هذه الآيات، أن القلب بمعناه الروحي لا العضوي، هو مركز التعقل، والتفكير، والتدبر، والإدراك، وسائر العمليات العقلية والوجدانية. ولا توجد أدنى إشارة في القرآن إلى أن هذه العمليات يقوم بها الدماغ، وإن كان هذا العضو

القلب في القرآن مركز التفكير والتعقل

إن العقل، بمعنى التعقل، أمر يوجد في القلب: وهو قول جمهور العلماء المسلمين. وكون القلبِ أيضا، موطن الشعور، والعواطف، والمشاعر، من حب، ومودة، ولين وقساوة، وحرص وطمع، وكبر وتواضع، أمر ينكره عاقل. ولقد أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية والفسيولوجية، أن القلب مرتبط بالمخ أو الدماغ، بواسطة العصب الشوكي .وأن القلب لا يتوقف عن إرسال الأوامر والمعلومات إلى الدماغ، وذلك استجابة وتنفيدا لإرادة الإنسان ورغباته، كما يقوم بالفعل اللإرادي، عندما يباغت الإنسان بأمر مقلق أو مخيف؛ حيث يرسل القلب إلى المخ أوامر تؤثر في الجانب الفسيولوجي، مما يجعل الشخص قادرا على التكيف مع الموقف الطارئ والمباغت. وكثيرا ما تسبب كثرة الرسائل العصبية الصادرة من القلب ألما في الدماغ.

وإذا كان العقل لم يذكر في القرآن، ولو مرة واحدة، بصيغة إسم دال على مسمى معين وجوهر مستقل قائم بذاته، فإن القلب ورد في القرآن أربعا وثلاثين ومائة مرة بصيغة الإسم، وذلك كما يلي: قلب، قلبك، قلبه، قلبها، قلبي، قلبين، قلوب، قلوبكما، قلوبكم، قلوبنا، قلوبهم، قلوبهن.

وقد يطلق العقل على القلب، كما يطلق السمع على الأذن؛ يعني تسمية الأداة بوظيفتها، وقد تذكر الأداة ويراد وظيفتها، في مثل قوله تعالى: "اِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ اَوَ اَلْقَي اَلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق37)؛ قال المفسرون: إن المراد بالقلب في هذه الآية؛ العقل، يعني أحد وظائفه، وهو ما يسمى في اللغة العربية؛ إطلاق الكل وإرادة الجزء منه.

بينما القدرات الدماغية؛ بيولوجية وظيفية، ولا تستطيع القيام بالقيادة العقلية للإنسان. فالدماغ عضو مادي قائم بوظيفة عضوية بيولوجية، بأمر من الكيان القلبي الروحي، خلافا لدعوى علماء النفس الماديين، الذين يسندون للدماغ وظيفة القيادة والتوجيه، والتفكير والتعقل.

"وقد يبدو لبعضهم أن العملية العقلية يحس لها وجود في الدماغ؛ هذا احساس وليس معرفة فلا يدل على صفه العقل، وإنما يدل على وجوده الذاتي المجرد، ولأن الدماغ مركز القيادة البنيوية الجسمية؛ فهو مركز قياده السيطرة الحسية. وما يحصل من جانب الإحساس يتركز فيه بوصفه مسيطرا عضويا للبنية الجسمية وفاعلياتها العضوية. وعليه فإن الإحساس ينحصر في هذه الناحية الوظيفية الجسمية، وليس في خاصة الإدراك البشرية، ويكون الظن بوجود القدرة العقلية في الدماغ ظنا خاطئا، حيث توهم الجهد الجسمي بأنه جهد ذهني".[118]

"لهذا يكون الدماغ آلة السيطرة لمركز القيادة في العمل الوظيفي للبنية الجسمية التي تخضع لقياده الطاقه الذهنيه..."[119]

"فالعين والأذن وغيرهما من الحواس، ترتبط في الكائن البشري بعلاقة كونه كيانا وليس مجموعة أعضاء، بأنها وسائل نقل الحس بالواقع إلى مراكز الإحساس في الإنسان. وهذا النقل ليس هو الإحساس المترتب من تكامل عناصره من الواقع المحسوس، وخاصة الحواس لنقله، وقدرة

---

[118] - "مفاهيم علماء النفس دراسة وتقويم رؤية إسلامية"، هشام البدراني، دار البيارق، الأردن عمان، د.ت، ص 76

[119] - المرجع نفسه، ص 109.

مسرحا لتجلياتها البيولوجية والفسيولوجية. كما لا يوجد دليل في القرآن يشير إلى أن تلك العمليات من صنع وتدبير كائن جوهري إسمه: العقل.

هذا وإن تعجب فعجب قول بعض علماء النفس، والفسيولوجيين الغربيين؛ إن العقل مادة عضوية !؟ تتميز بخاصية التفكير والتعقل. ولقد انتشرت بعض المفاهيم المتعلقة بالعقل مثل؛ العقل الأداتي، والعقل الآلي، والعقل الالكتروني، التي تتجه نحو تأكيد مادية العقل؛ أي أنه مجرد إفراز مادي؛ مصدره بنية مادية تنحصر في الدماغ. بمعنى أن هيمنة هذه المفاهيم، وهذا التصور الأخير عن العقل الإنساني، هو الذي جعل الإنسان الغربي يزداد اقتناعا بأن التفكير وظيفة مادية من وظائف الدماغ. ولا شك أن الاقتناع بهذا التصور يجسد النتيجة النهائية، والثمرة المباشرة للمجهودات الفكرية والفلسفية، التي قامت بها أجيال من الفلاسفة والعلماء والأطباء الأوربيين، بدءا من عصر التنوير.

إن هذا التوجه المادي الذي ساد الفكر الأوربي خلال القرون الأخيرة، جاء نتيجة الصراع الطويل بين العلماء والفلاسفة والأطباء من جهة، والقساوسة وأرباب الكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى، ذلك الصراع الذي أفضى إلى انتشار الإلحاد والعلمانية، ونبذ كل ما له علاقة بالدين والروح وعالم الغيب. إن إسناد التفكير والتعقل والإدراك إلى الدماغ، يرجع بالأساس إلى نتائج ذلك الصراع، وإلى المناخ الفلسفي المادي الذي ساد أوربا إلى يوم الناس هذا. كما يرتبط بتصور خاطئ ناتج عن الخلط بين القدرات العقلية، أي؛ القلبية، وقدرات الدماغ العضوية المادية؛ ذلك أن القدرات العقلية الروحية تعتبر من صميم الكيان البشري الروحي،

وقد يقول قائل: إن الأجهزة العلمية الدقيقة استطاعت رصد الحركات أو التفاعلات البيولوجية الدماغية، التي تحدث أثناء عملية التفكير، سواء كان الإنسان غائبا أو حاضرا بذهنه، نائما أو يقظان، مما يثبت الأصل البيولوجي المادي للتفكير؛ أي أن الدماغ هو الذي يفرز التفكير. أقول: إن هذا خطأ فادح، والصواب هو أن تلك الحركات أو التفاعلات البيولوجية الدماغية، تمثل وتجسد الآثار المادية البيولوجية للعمليات العقلية القائمة في كيان الإنسان بمعناه الروحي، إذ كل ما يفكر فيه الإنسان أو تنقله حواسه، يطبع وينقش في دماغه. إن الإحساس بوجود العملية العقلية في الدماغ هو مجرد إحساس وليس معرفة، إحساس ناتج عن أثر المعرفة في الدماغ من خلال النقش أو الطبع الذي تدل عليه تلك الحركات أو التفاعلات البيولوجية الدماغية. ومن هنا فإن الظن بوجود القدرة العقلية، ذات الأساس الروحي، في الدماغ ظن خاطئ واستنتاج لا ينهض على دليل قاطع.

"إن نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس إلى المراكز الحسية الدماغية، لا يحصل منه فكر مطلقا، والذي يحصل في ذات الكائن الحي البشري نتيجة هذه العملية؛ هو الاحساس فقط... وأنه لابد من وجود أو تنوع معلومات سابقه تفسر هذا الإحساس؛ أي تتوفر المعلومات السابقة في ذهن الانسان عندما تجري في العقل عمليه تفسير الواقع المحسوس بواسطتها، فيحصل تفكير وينتج فكر".[121]

[121] - "مفاهيم علماء النفس"، المرجع السابق، ص72.

الكائن البشري على تمثله بالصورة الحسية المعينة. لأن العين هنا وساطة لتوصيل صور الواقع الحسية بصفتها البصرية، وليست هي محل الرؤية أو صفته. على هذا فإن العين لا تبصر، وإنما تنقل الحس بالواقع الذي تتأتى به مقومات الرؤية للكائن الحي البشري، فتحصل الرؤية. والأذن لا تسمع، وإنما تنقل الحس بصورة الواقع السمعي، والدماغ لا يحس، وإنما يتركز فيه الإحساس، وهكذا. فلو كان الإبصار خاصة العين لأمكن الرؤية بالعين وحدها وبمعزل عن الجسم؛ وما يقال في العين ينطبق على باقي الحواس أو الأعضاء."[120]

وكثيرا ما تجد الإنسان غائبا بقلبه، أي: روحه، يفكر في موضوع معين، وتحدث وقتئذ أصوات فلا يسمعها، أو تمر أشياء أمام عينيه فلا يبصرها. لماذا بطل الإحساس بتلك الأصوات والصور، مع سلامة الأذن والعين والدماغ؟ أليس لأن الإنسان بقلبه، أي: روحه وكيانه المستقل عن تلك الأدوات والآلات ومجموع البنية الفسيولوجية والعصبية، هو الذي يقرر ويحكم ويحس ويشعر ويدرك...؟ فلم لم يأمر الدماغ (الذي يعقل؟؟ !) الحواس بنقل تلك المحسوسات المسموعة والمرئية، إلى مركزها، ثم يعمل على إدراكها بنفسه ؟. ألا يتبين من خلال هذا المثال، أن خاصية الإحساس والشعور والإدراك، هي خاصية متعلقة بماهية الإنسان وكينونته وحقيقته الروحية؟ أليس من السطحية وقصور في الفهم: الظن بأن تلك الخاصية هي خاصية عضو جسدي مادي، أو خاصية مجموعة من الخلايا، أو أعصاب دماغية...؟

---

[120]- المرجع نفسه، ص 101-102.

مصادر ومراجع الكتاب

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

✍ **صحيح البخاري**، البخاري: أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، 1311 هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني. ثم صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى 1422 هـ لدى دار طوق النجاة - بيروت، مع إثراء الهوامش بترقيم الأحاديث لمحمد فؤاد عبد الباقي، والإحالة لبعض المراجع المهمة،عدد الأجزاء: 9.

✍ **سنن الترمذي**، الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت 279)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصرالطبعة: الثانية، 1495 هـ - 1975 م عدد الأجزاء: 5 أجزاء.

✍ **صحيح مسلم**، مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261)،المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي ببيروت، وغيرها، عام النشر: 1374 هـ - 1955 م، عدد الأجزاء: 5.

"خاصه الحواس نقل الحس بالواقع، وخاصه الدماغ تمركز الاحساس الواقعي المنقول إليه، وخاصه الانسان الإحساس، وخاصته الشعور وخاصته الإدراك..."[122]

وهكذا فإن اعتقاد الغربيين بمادية الوجود والحياة، وعدم إيمانهم بوجود عالم الروح والغيب والآخرة، جعل علماءهم البيولوجيين والنفسانيين، لا يؤمنون بالجانب المعنوي والروحي للكائن البشري، واقتصروا فقط على ما يحسون بماديته مما يتعلق بالوظائف الجسمية والعضوية لهذا الكائن، مما أدى بهم إلى الوقوع في سوء فهم طبيعة الدماغ وماهيته، حيث اعتبروه موطن العقل أو هو العقل نفسه، بينما الدماغ عضو جسدي وظيفي، يستقبل رسائل القلب الروحي، وينفد أوامره بمشيئة الله سبحانه، ما أجلّه وأعظمه.

---

[122]- المرجع نفسه، ص 101.

✍ **محاسبة النفس لابن أبي الدنيا**، ابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281 هج)، تحقيق: المعتصم بالله أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 معدد الصفحات: 134.

✍ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هج)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، عدد الأجزاء: 2.

✍ **التبصرة لابن الجوزي**، ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1406هج- 1986م، عدد الأجزاء: 1.

✍ **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت 468)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس. قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1415هج- 1994م، عدد الأجزاء: 4.

- **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (1335هج)، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار - من أعضاء مجمع اللغة العربية،الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993 م، عدد الصفحات: 1628.
- **مختار الصحاح**: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (666 هج)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة،عدد الأجزاء: 50، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م
- **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثيرعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هج)، وضع حواشيه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، عدد الأجزاء: 9 .
- **التعريفات، الجرجاني**: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م، عدد الصفحات: 262.

- **سنن أبي داود**، أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت275)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، عدد الأجزاء: 4.
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، طنطاوي: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط1، 1998 م.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروتط3 1416 هـ - 1996م، عدد الأجزاء: 2.
- **الموافقات** الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، ط1، 1417هج-1997م، عدد الأجزاء: 7.
- **التحرير والتنوير** "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (1393هج)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984، عدد الأجزاء: 30.
- **لسان العرب**، ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711)،

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري**: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت 310)، دار التربية والتراث - مكة المكرمة - ص.ب: 7780، د.ت. عدد الأجزاء: 24.
- **معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي**: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 510)، المحقق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت
ط1 ، 1420 هـ، عدد الأجزاء :5.
- **تفسير القرآن الكريم، ابن القيم**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1410هـ، عدد الصفحات: 695.
- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، ابن القيم**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار المعرفة – المغرب، ط1، 1418هـ - 1997م، عدد الصفحات: .243
- **سنن ابن ماجه، ابن ماجة**: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت 273)، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: 2.

✍ **صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها**؛ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354)، المحقق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، ط1،، 1433هج- 2012م، عدد الأجزاء: 8.

✍ **المعجم الكبير**،الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط2، د.ت.، الأجزاء: 25.

✍ **الوابل الصيب من الكلم الطيب**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث – القاهرة، ط3، 1999م، عدد الصفحات: 153.

✍ **الفوائد**، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكربن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1393هج- 1973م، عدد الصفحات: 212.

✍ **مفاهيم علماء النفس دراسة وتقويم**، هشام البدراني، دار البيارق، الأردن عمان. د.ت.

✍ **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**؛ أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط2، 1412هج-1992م، عدد الصفحات: 383.

الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروتن ط3، 1414هج، عدد الأجزاء: 15.

✍ **المفردات في غريب القرآن**،الأصفهاني؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط1، 1412.

✍ **العقل وفضله**، ابن أبي الدنيا؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت281)، مكتبة القرآن – مصر، د.ت.، عدد الصفحات: 70.

✍ **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، ابن حبان؛ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية – بيروت،عدد الصفحات: 289.

✍ **الأخلاق والسير في مداواة النفوس**، ابن حزم؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت 456)، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط2، 1399هـ - 1999م، عدد الصفحات: 95.

✍ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**،الزمخشري؛ محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت 538)، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت ط3، 1407هج- 1987م، عدد الأجزاء: 4.

فهرس الموضوعات

إن موضوعات الروح، والنفس، والعقل، والقلب بمعناه الروحي، من الموضوعات الجوهرية التي شغلت بال المفكرين، والفلاسفة، والمتصوفة، ورجال الدين، على مر العصور. كما أُلفت فيها آلاف الرسائل والكتب والمقالات.

وبما أن طبيعة هذه الموضوعات لا تخضع للبحث التجريبي المادي، فإن تصورها، وفهمها، وتمثلها، اختلف باختلاف ميول وعقائد المفكرين والدارسين. فإذا نظرنا، على سبيل المثال، في الفلسفة اليونانية، وجدنا أن هناك تضاربا فكريا وتصوريا، بين كثير من فلاسفة اليونان، فيما يخص حقيقة وجوهر هذه الموضوعات الأربعة.(...).

وإذا كانت آراء الفلاسفة والمتصوفة، وغيرهم من المفكرين، متضاربة فيما بينها لاختلاف المنطلقات العقدية والفكرية، فإن الوحي القرآني يقدم للبشرية تصورا عميقا ومقنعا، لحقيقة هذه الموجودات الأصيلة الأربعة، مستدلا عليها بأدلة وبراهين يستحيل دحضها، كما لا يعترض عليها أو يجادل فيها إلا جاهل، أو جاحد قد طبع الله على قلبه.